المذهب الكلامي في السنة النبوية دراسة نقدية مقارنة

د. عبد الكريم محمد خلف ضاحي
جامعة الأنبار – المكتبة المركزية
Karem161978@gmail.com

الملخص :

يركز بحثي هذا على فن بديعي ألا وهو المذهب الكلامي ، فيرصد أمثلة منه في الأحاديث النبوية الشريفة مُبرزاً سياقها الذي وردت فيه من حيث الجانب الموضوعي وآلية الاستعمال له من لدن النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضي الله عنهم ، وكذلك يرصد التعانق للفنون البلاغية في الإطار العام الذي ورد فيه المذهب الكلامي مُبيناً أثره في رسم الصورة وإيصال المعنى للمتلقي بوضوح شديد ودقة متناهية وجمال أخَّاذ ، ومقارنة كل ذلك ببعض الأمثلة القرآنية .

Abstract

My research concentrates an aesthetics Art which is the doctrine of reason .
It collects examples of Hadiths that reflects that aesthetic side . Showing the context in which it occurred and the mechanism of its usage by the Prophet and his followers . It also focuses on the margin of the Reason Doctrine Showing its effect in painting a picture and malcing the listeners understand clearly in such a perfect accuracy and comparing all that with examples from the Holly Quraan

المقدمة:

الحمد لله رب العالمين وأفضل الصلاة وأتم التسليم على سيدنا (ﷺ)وعلى آله وصحبه أجمعين ، وبعد :

فكثيرًا ما كنت أدقق وأمعن النظر في كتب البلاغة والأدب متمعنًا في أمثلتها على ما تذكر من فنون بلاغية فأجد أنها تُكثر الاستشهاد بالقرآن الكريم والشعر العربي ، ولا تذكر من الأحاديث القدسية والنبوية إلا الشيء القليل ، والحال نفسه ينطبق على المناهج الدراسية في الكليات سواء أكان في الدراسات الأولية أم العليا ، وفي الآونة الأخيرة والحمد لله بدأت تظهر دراسات تُعنى بالحديث القدسي والنبوي وتنحى منحى التطبيق فيها ، وتبتعد عن التنظير ، وهذا مما لا بد منه ، ومن هذا المنطلق كان بحثي هذا ، والذي يتناول فناً بديعياً في نصوص الحديث النبوي الشريف ، وقد أسميته " المذهب الكلامي في السنة النبوية – دراسة نقدية مقارنة " ، وأُحاول الإجابة فيه عن الأسئلة الآتية :

ما أبرز الموضوعات التي جاء فيها هذا الفن البلاغي ؟ وهل تشابه مع مجيئه في القران الكريم ؟ كيف استعمله النبي (ﷺ)؟ وكيف استعمله الصحابة الكرام رضي الله عنهم ؟ وهل عانق مجيئه فنوناً بلاغيةً أخرى ؟ كل ذلك أجيب عنه مصحوباً بأمثلةٍ تطبيقية من السنة النبوية المطهرة ، ثم أقارنها بالأمثلة القرآنية التي حوت هذا الفن البلاغي . وقد قسمته على محاور :

المحور الأول : أمثلة تطبيقية من الأحاديث النبوية الشريفة .

المحور الثاني : استعمالات الصحابة رضي الله عنهم للمذهب الكلامي .

المحور الثالث : المذهب الكلامي بين القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف .

ثم أنهيت البحث بخاتمة ذكرت فيها أبرز النتائج التي توصلت إليها ، ثم ثبت المصادر.

المحور الأول : أمثلة تطبيقية من الأحاديث النبوية الشريفة .

لا بد لي في بداية الحديث هنا أن أُعرّج على ذكر أبرز الموضوعات التي جاء فيها هذا الفن البلاغي[١]، والتي تمثلت بالآتي :

الحديث عن الجانب العقائدي بكل تفصيلاته التي لا يمكن للعقل البشري أن يُدرك كُنهها ؛ ولذلك استعمل النبي صلى الله عليه وسلم الاحتجاج النظري والاستدلال العقلاني لتقريب الصورة للأفهام .

الحديث عن بعض العبادات وآلية تطبيق مفرداتها ، والتي قد يستغرب البعض منها ، فيأتي الإيضاح أو الحث على القيام بها وفق المراد النبوي ، ويتم ذلك عبر الإقناع على طريقة المذهب الكلامي .

الحديث عن بعض الجوانب السلوكية التي دعت الأحاديث النبوية الشريفة إلى تطبيقها على أتم وجه عند تعامل المرء مع من حوله من الناس ، ولترسيخ ذلك يأتي الاحتجاج النظري والاستدلال العقلاني .

الحديث عن بعض المعاملات التي ترغب الشريعة السمحاء بأن يمتثل بها الفرد المسلم في حياته اليومية وفق التوجيه الشرعي ، ويأتي الإقناع بتطبيقها على طريقة المذهب الكلامي .

وأول الأمثلة التي سأقف عندها ، والتي تحدثت عن الجانب العقائدي هو قوله (ﷺ): ((يُحْشَرُ النَّاسُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ عَلَى ثَلَاثَةِ أَصْنَافٍ: رُكْبَانًا، وَمُشَاةً، وَعَلَى وُجُوهِهِمْ ، فَقَالَ رَجُلٌ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَيَمْشُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ؟ قَالَ: الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ))[٢] .

وظاهر هذا الحديث ((أن المراد مشيه على وجهه حقيقة فلذلك استغربوه حتى سألوا عنه ... وحكمة حشره على وجهه معاقبته على تركه السجود في الدنيا إظهاراً لهوانه وخساسته بحيث صار وجهه مكان يديه ورجليه في التوقي عن المؤذيات لَمَّا لَمْ يَجْعَلُوهَا سَاجِدَةً لِمَنْ خَلَقَهَا وَصَوَّرَهَا))[٣] ، وقد جاء الإجمال وبعده التفصيل موضحاً أهوال ومشاهد اليوم الآخر ، وعند سماع ذلك يقف المرء مذهولاً لمعرفة الأصناف التي جمعت أولاً وينتظر التفصيل فيها ، وما إن يصل التوضيح إلى الصنف الثالث حتى يستغرب البعض منه وهذه الإثارة النفسية تولد استقبالاً نفسياً عالياً لما يقال ، ولأن الأمر يتعلق بشيء من عالم الغيب احتاج توضيحه لقياس ومذهب عقلاني يستوعبه المتلقي ويفهمه ، ولأجل ذلك جاء المذهب الكلامي القائم على الحجة الدافعة ، فمن أمشاه على رجليه في الدنيا قادر على فعل غير ذلك في الآخرة ، ونلحظ بهاء النص وتألقه بترابط أكثر من فن بلاغي فيه ، وقد صور القرآن الكريم ذلك فقال تعالى : ((الَّذِينَ يُحْشَرُونَ عَلَى وُجُوهِهِمْ))[٤] ، وقال أيضاً : ((أَفَمَنْ يَتَّقِي بِوَجْهِهِ سُوءَ الْعَذَابِ يَوْمَ الْقِيَامَةِ))[٥].

ونلحظ هنا صورة الكافر الذي يلقى ((مغلولًا في النار، فلا يقدر عن أن يدفعَ عن نفسه النار إلا بوجهه، فحينئذ لا واقيَ له البتة))[٦] .

أما قوله (ﷺ): ((لَوْ تَعْلَمُونَ مَا أَعْلَمُ لَضَحِكْتُمْ قَلِيلًا وَلَبَكَيْتُمْ كَثِيرًا))[٧]، فنلحظ فيه استدلالاً عقلانياً على طريقة المذهب الكلامي ، إذ بيّن النبي صلى الله عليه وسلم أن عجزهم عن إدراك عالم الغيب وما فيه جعلهم غير عابئين لما ينتظرهم في مآلهم الأخير ((وتمام الدليل أن يقال لكنكم ضحكتم كثيرًا وبكيتم قليلًا، فلم تعلموا ما أعلم، فهذا قياس شرطي))[٨] ، وهو بهذه الصورة ينطوي تحت مفهوم المخالفة كما عند علماء الأصول . وهذا من تمام رحمة الله بعباده ، وإن كان فيه تلميح لضرورة الاستعداد لذلك اليوم ، وقد أسهمت المقابلة في إيضاح المقصود وتوضيح المراد ، فقد رسمت صورتين متقابلتين أثارتا بعداً جمالياً ونفسياً لدى المتلقي ، وهذا هو المغزى من التعانق للفنون البلاغية في النص الواحد .

وعَنْ أَبِي هُرَيْرَةَ أَنَّ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ)خَرَجَ إِلَى الْمَقْبُرَةِ، فَقَالَ: ((السَّلَامُ عَلَيْكُمْ دَارَ قَوْمٍ مُؤْمِنِينَ ، وَإِنَّا إِنْ شَاءَ اللَّهُ بِكُمْ لَاحِقُونَ، وَدِدْتُ أَنِّي قَدْ رَأَيْتُ إِخْوَانَنَا)) ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ، أَلَسْنَا بِإِخْوَانِكَ؟ قَالَ: ((بَلْ أَنْتُمْ أَصْحَابِي . وَإِخْوَانُنَا الَّذِينَ لَمْ يَأْتُوا بَعْدُ. وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ)) ، فَقَالُوا: يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ كَيْفَ تَعْرِفُ مَنْ يَأْتِي بَعْدَكَ مِنْ أُمَّتِكَ؟ قَالَ: ((أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لِرَجُلٍ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ فِي خَيْلٍ دُهْمٍ بُهْمٍ أَلَا يَعْرِفُ خَيْلَهُ ؟ قَالُوا: بَلَى، يَا رَسُولَ اللَّهِ قَالَ: فَإِنَّهُمْ يَأْتُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ غُرًّا مُحَجَّلِينَ مِنَ الْوُضُوءِ. وَأَنَا فَرَطُهُمْ عَلَى الْحَوْضِ. فَلَا يُذَادَنَّ رِجَالٌ عَنْ حَوْضِي كَمَا يُذَادُ الْبَعِيرُ الضَّالُّ، أُنَادِيهِمْ: أَلَا هَلُمَّ أَلَا هَلُمَّ أَلَا هَلُمَّ، فَيُقَالُ: إِنَّهُمْ قَدْ بَدَّلُوا بَعْدَكَ. فَأَقُولُ: فَسُحْقًا. فَسُحْقًا. فَسُحْقًا))[٩].

وفي هذا الحديث النبوي الشريف يأتي المذهب الكلامي مُبرزاً آلية معرفته (ﷺ)لأمته يوم القيامة من خلال المقارنة بشيء من واقع المخاطبين المشاهد في بيئتهم ، ألا وهو مشهد الخيل المميزة عن محيطها الذي تجيء فيه ، ويُظهر هذا التميز ((أَنَّ هَذِهِ الْأُمَّةَ مَخْصُوصَةٌ بِالْغُرَّةِ وَالتَّحْجِيلِ مِنْ سَائِرِ الْأُمَمِ))[١٠] وفي ذلك بشارة لهذه الأمة بأن واردهم إلى الماء هو محمد (ﷺ) ((والفرط : هو المتقدم إلى الماء))[١١] .

وقد تضمنت طريقة إقناعهم ضرب المثل برجل ((خيوله كلها سوداء، وله خيل غر محجلة ضمن هذه الخيول السوداء ، والغر المحجلة : هي التي في رأسها ويديها بياض، ألا يستطيع أن يميز بين هؤلاء وهؤلاء ؟ (فقالوا: بلى يا رسول الله! قال: فإنهم يأتون غراً محجلين من الوضوء)، فالنور الذي يكون للمؤمن يوم القيامة هو بسبب الوضوء))[١٢] ، وهنا تتضح الصورة أشد الوضوح للمخاطبين في كل زمان ومكان ، ويزيدهم بعد ذلك شوقاً وهمةً للقياه (ﷺ)على حوض الكوثر ((ومن شرب منه شربة لم يظمأ بعدها أبداً، نسأل الله عز وجل أن يسقينا من حوضه صلوات الله وسلامه عليه في أول من يسقيهم النبي صلوات الله وسلامه عليه))[١٣] .

وللخيال مساحة واسعة للتأمل في هذا النص الرائع فيرسم صورة ذهنية لهذا المشهد المتحرك : أناس يأتون للورود على حوض الكوثر فيُمنعون كما يُمنع البعير الضال ، وما أشده من توبيخ وصورة مستنفرة (بعير وضال) فيناديهم سيد الخلق (ﷺ)بثلاثية تكرار فريدة (أَلَا هَلُمَّ أَلَا هَلُمَّ أَلَا هَلُمَّ) ويأتيه الرد الملائكي

بنكوصهم عن الحق ، فيُردد مرة ثانية بالطريقة ذاتها (فَسُحْقًا. فَسُحْقًا. فَسُحْقًا) وهذه اللفظة (فسحقاً) ذات الأثر الفعال التي تحمل التأسف على ما فعلوه تذكرنا بالآية الكريمة ((يا حسرة على العباد ما يأتيهم من رسول إلا كانوا به يستهزئون))[١٤] والتي تحمل الطابع نفسه ، والحسرة ((انفعال نفسي على حال مؤسفة لا يملك الإنسان شيئاً حيالها سوى أن يتحسر ، والله سبحانه وتعالى لا يتحسر على العباد ، ولكنه يقرر أن حالة هؤلاء العباد مما يستحق حسرة المتحسرين ، فهي حال بائسة مؤسفة تنتهي بأصحابها إلى شر وخيم وبلاء عظيم))[١٥] وهذه هي اللمحات المتشابهة في النصوص الشرعية .

وعن عَوْفِ بْنِ مَالِكٍ الْجُشَمِيِّ، عَنْ أَبِيهِ، قَالَ: أَتَيْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ)فَصَعَّدَ فِيَّ الْبَصَرَ وَصَوَّبَهُ، ثُمَّ قَالَ: ((أَرَبُّ إِبِلٍ أَنْتَ، أَوْ رَبُّ غَنَمٍ؟ ، وَكَانَ يُعْرَفُ رَبُّ الْإِبِلِ مِنْ رَبِّ الْغَنَمِ بِهَيْئَتِهِ، فَقُلْتُ: مِنْ كُلٍّ قَدْ أَتَانِيَ اللَّهُ فَأَكْثَرَ ... قُلْتُ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، يَأْتِينِي ابْنُ عَمِّي، فَأَحْلِفُ أَنْ لَا أُعْطِيَهِ، وَلَا أَصِلَهُ، قَالَ: كَفِّرْ عَنْ يَمِينِكَ ، قَالَ: ثُمَّ قَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ عَبْدَانِ أَحَدُهُمَا لَا يَخُونُكَ، وَلَا يَكْتُمُكَ حَدِيثًا، وَلَا يَكْذِبُكَ، وَالْآخَرُ، يَكْذِبُكَ وَيَكْتُمُكَ، وَيَخُونُكَ، أَيُّهُمَا أَحَبُّ إِلَيْكَ ؟، قُلْتُ: الَّذِي لَا يَكْذِبُنِي، وَلَا يَخُونُنِي، وَلَا يَكْتُمُنِي، قَالَ: فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ (ﷺ) : فَكَذَلِكَ أَنْتُمْ عِنْدَ رَبِّكُمْ))[١٦]. وهنا كان الحوار على طريقة المذهب الكلامي لإقناع السائل وإيضاح الصورة لديه عن الدين الجديد وعن الخالق المعبود ، فقد تضمن الحوار تقريب الصورة لذهن المخاطب بعد التوظيف البارز لـ " العبد " بصورتيه المشاكس العاصي والناصح لسيده مما تولد لدى المقابل اختيار الناصح ، وهذا مما لا بد منه ، وبهذه الإجابة فهم السائل مقامه عند ربه ، وقد جاء الحوار النبوي هنا مقتدياً بما في القرآن الكريم إذ ضرب الله المثل بـ " العبد " كذلك ، فقال تعالى : ((ضرب الله مثلاً رجلاً فيه شركاء متشاكسون ورجلاً سلماً لرجل هل يستويان مثلاً الحمد لله بل أكثرهم لا يعلمون))[١٧] وهنا يظهر جلياً عمق الترابط بين النصوص الشرعية في التعبير عن الموضوع الواحد ، فقد ضرب الله المثل هنا ((بعبد يملكه شركاء يخاصم بعضهم بعضاً فيه ، وهو بينهم موزع ولكل منهم فيه توجيه ولكل منهم عليه تكليف ، وهو بينهم حائر لا يستقر على نهج ولا يستقيم على طريق ، ولا يملك أن يُرضي أهواءهم المتنازعة المتشاكسة المتعارضة التي تمزق اتجاهاته وقواه ، وعبد يملكه سيد واحد وهو يعلم ما يطلبه منه ويكلفه به فهو مستريح مستقر على منهج واحد صريح))[١٨] ، فما أشد وضوح الصورتين والتي تحتم الاختيار الموفق للمتلقي وإلا سيُصيبه الخسران المبين. وعن أبي هريرة رَضِيَ اللهُ عَنْهُ ، قَالَ جَاءَ رَجُلٌ إِلَى رَسُولِ اللَّهِ (ﷺ)فَقَالَ: ((أرأيت قوله تعالى

((وجنة عرضها السَّمَاوات والأَرْض))[١٩] فأين النار؟ قال أرأيت الليل ما لبس كل شيء فأين النهار؟ قال حيث شاء الله ، قال فكذلك حيث شاء الله))[٢٠] .

ومن أروع الاستعمالات للمذهب الكلامي الإجابة النبوية للسائلين عن مشاهد يوم القيامة ولأن العقول لا تدرك حقيقتها وكنهها جاءت على هيئة سؤال للسائل نفسه ، وعند إجابته عليه يبين المراد وتتضح الصورة

لديه ، فلا داعي للخوض في تفصيلات عالم الغيب الكبير بكل ما فيه ، إنما هو الإقناع بأيسر الطرق وأقربها إلى الأذهان .

وعن قيسِ بنِ سعد، قال: أتيتُ الحيرةَ فرأيتُهم يسجدون لمرْزُبانٍ لهم، فقلتُ: رسولُ اللهِ أحقُّ أن يُسجدَ له، قال: فأتيتُ النبي (ﷺ) فقلت: ((إني أتيتُ الحيرةَ فرأيتُهم يَسجُدُونَ لمرزبانٍ لَهُمْ، فأنت يا رسولَ اللهِ أحقُّ أن نسجُدَ لك، قال: أرأيتَ لو مررتَ بقبري أكنتَ تَسجُدُ له؟ قال: قلت: لا، قال: فلا تَفْعَلُوا، لو كنتُ آمراً أحداً أن يَسجُدَ لأحدٍ لأمرتُ النِّساءَ أن يسجُدْنَ لأزواجِهِنَّ، لِمَا جَعَلَ اللهُ لهم عليهنَّ من الحق))[٢١].

ولإقرار حقيقة التوحيد لله رب العالمين جاء الاستدلال العقلاني هنا على طريقة المذهب الكلامي ؛ لمنع فعل ينافي هذه الحقيقة . قَالَ الطِّيبِيُّ معلقا على هذا الحديث:((أَيِ اسْجُدُوا لِلْحَيِّ الَّذِي لَا يَمُوتُ وَلِمَنْ مُلْكُهُ لَا يَزُولُ فَإِنَّكَ إِنَّمَا تَسْجُدُ لِي الْآنَ مَهَابَةً وَإِجْلَالًا، فَإِذَا كُنْتُ رَهِينَ رَمْسٍ امْتَنَعْتَ عَنْهُ))[٢٢] .

والملاحظ أن النهي النبوي هنا بمنتهى اللطف والمراعاة لنفسية المخاطب ، فلا تجريح ولا توبيخ ، إنما هو التوجيه والإقناع فحسب .

وكذلك الحال مع الجانب العبادي فقد كان للحوار العقلاني والمذهب الكلامي حضور بارز فيه ، ومن ذلك ما رواه ابن عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنْهُمَا، أَنَّ امْرَأَةً أَتَتْ رَسُولَ اللهِ (ﷺ)فَقَالَتْ: إِنَّ أُمِّي مَاتَتْ وَعَلَيْهَا صَوْمُ شَهْرٍ، فَقَالَ صلى الله عليه وسلم : ((أَرَأَيْتِ لَوْ كَانَ عَلَيْهَا دَيْنٌ أَكُنْتِ تَقْضِينَهُ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: فَدَيْنُ اللهِ أَحَقُّ بِالْقَضَاءِ))[٢٣] . فنلحظ في هذا الحديث ((إثبات القياس، الذي هو أحد أصول الجمهور في الاستدلال ، وقد ضرب لها النبي عليه الصلاة والسلام المثل بما هو معهود لها، ليكون الفهم أبلغ، وليقربه من ذهنها ، فإن تشبيه البعيد بالقريب، يسهل إدراكه وفهمه))[٢٤] ، وقد جاء هنا ((تشبيه ما اختلف فيه وأشكل بما اتفق عليه))[٢٥] ليتضح المراد للسائل ويقتنع أشد القناعة بتطبيق ما يُفضي إليه الجواب النبوي لا سيما بعد مجيء هذا الإقناع عقلانياً على طريقة المذهب الكلامي ، فانتقل النبي صلى الله عليه وسلم بحواره معها بالتدريج فحاورها أولاً ليصل إلى النتيجة الحتمية بضرورة وفائها لدين البشر ، وبعدها تطور الحوار لتقتنع أن دَين الله أحقُ بالقضاء . وعنْ أَبِي ذَرٍّ رضي الله عنه ، أَنَّ نَاسًا مِنْ أَصْحَابِ النَّبِيِّ صلى الله عليه وسلم قَالُوا لِلنَّبِيِّ (ﷺ): يَا رَسُولَ اللهِ، ذَهَبَ أَهْلُ الدُّثُورِ بِالْأُجُورِ، يُصَلُّونَ كَمَا نُصَلِّي، وَيَصُومُونَ كَمَا نَصُومُ، وَيَتَصَدَّقُونَ بِفُضُولِ أَمْوَالِهِمْ، قَالَ: ((أَوَلَيْسَ قَدْ جَعَلَ اللهُ لَكُمْ مَا تَصَّدَّقُونَ؟ إِنَّ بِكُلِّ تَسْبِيحَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَكْبِيرَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَحْمِيدَةٍ صَدَقَةً، وَكُلِّ تَهْلِيلَةٍ صَدَقَةً، وَأَمْرٌ بِالْمَعْرُوفِ صَدَقَةٌ، وَنَهْيٌ عَنْ مُنْكَرٍ صَدَقَةٌ، وَفِي بُضْعِ أَحَدِكُمْ صَدَقَةٌ، قَالُوا: يَا رَسُولَ اللهِ، أَيَأْتِي أَحَدُنَا شَهْوَتَهُ وَيَكُونُ لَهُ فِيهَا أَجْرٌ؟ قَالَ: أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟ فَكَذَلِكَ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ كَانَ لَهُ أَجْرٌ))[٢٦] . وَفِي هَذَا الحوار النبوي ((دَلِيلٌ عَلَى أَنَّ الْمُبَاحَاتِ تَصِيرُ طَاعَاتٍ بِالنِّيَّاتِ الصَّادِقَاتِ فَالْجِمَاعُ يَكُونُ عِبَادَةً إِذَا نَوَى بِهِ قَضَاءَ حَقِّ الزَّوْجَةِ وَمُعَاشَرَتَهَا بِالْمَعْرُوفِ الَّذِي أَمَرَ اللَّهُ تَعَالَى بِهِ أَوْ طَلَبَ وَلَدٍ صَالِحٍ أَوْ إِعْفَافَ نَفْسِهِ أَوْ إِعْفَافَ الزَّوْجَةِ وَمَنْعَهُمَا جَمِيعًا مِنَ النَّظَرِ إِلَى حَرَامٍ أَوَ الْفِكْرِ فِيهِ أَوِ الْهَمِّ بِهِ أَوْ غَيْرِ ذَلِكَ مِنَ الْمَقَاصِدِ الصَّالِحَةِ))[٢٧].

ومحصلة هذا القياس راجعة((إِلَى إِعْطَاء كل وَاحِد من المتقابلين مَا يُقَابل بِهِ الآخر من الذوات وَالْأَحْكَام))[٢٨]. ولعدم ظهور هذا المعنى سأل الصحابة نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم ، لأن الأجر غير معروف في المباح ، فأجابهم بسؤال : (أَرَأَيْتُمْ لَوْ وَضَعَهَا فِي حَرَامٍ أَكَانَ عَلَيْهِ فِيهَا وِزْرٌ؟).

قَالَ الطِّيبِيُّ : ((أَقْحَمَ هَمْزَةَ الِاسْتِفْهَامِ عَلَى سَبِيلِ التَّقْرِيرِ بَيْنَ لَوْ وَجَوَابِهَا تَأْكِيدًا لِلِاسْتِخْبَارِ فِي (أَرَأَيْتُمْ) ، أي : فَعَلَى ذَلِكَ الْقِيَاسِ إِذَا وَضَعَهَا فِي الْحَلَالِ ، وَعَدَلَ عَنِ الْحَرَامِ مَعَ أَنَّ النَّفْسَ تَمِيلُ إِلَيْهِ وَتَسْتَلِذُّ بِهِ أَكْثَرَ مِنَ الْحَلَالِ ، فَإِنَّ لِكُلِّ جَدِيدٍ لَذَّةً ، وَالنَّفْسُ بِالطَّبْعِ إِلَيْهَا أَمْيَلُ وَالشَّيْطَانُ إِلَى مُسَاعَدَتِهَا أَقْبَلُ وَالْمُؤْنَةُ فِيهَا عَادَةً أَقَلُّ كَانَ لَهُ أَجْرٌ))[٢٩].

ولو دققنا النظر في مجريات هذا الحوار لوجدنا أنها لا تُعدّ من قبيل الإنكار منهم للوحي ، ولكنها تحتمل الاستفسار منهم عن موضع معين ((فبين لهم وقاس القياس المتقدم ، وهذا القياس المتقدم الذي قرر ضربٌ من قياس العكس))[٣٠] . فرتب صلى الله عليه وسلم ((الأجرَ والوزرَ على مجرد الوضع، من غير قصدِ شيءٍ آخر، فيكون فعلهُ بمجرده في محله نية))[٣١]

وبهذا يتضح المذهب الكلامي هنا ، والذي استند على قياس العكس ، إذ قاس صلى الله عليه وسلم الحلال بالحرام قياساً عكسياً لأنه قاس حالاً على حال ((فالمقيس عليه هو وضعها في حرام وأنه يأثم ، فيقاس عليه أنه إذا وضعها في حلال فإنه يؤجر))[٣٢] ، وبعرض صورتي الحلال والحرام اتضح المراد وثبت الأجر استناداً إلى أصل الفعل من المخاطبين .

وعنْ عُمَرَ بْنِ الْخَطَّابِ رضي الله عنه ، قَالَ: هَشَشْتُ يَوْمًا فَقَبَّلْتُ وَأَنَا صَائِمٌ، فَأَتَيْتُ النَّبِيَّ (ﷺ)فَقُلْتُ: صَنَعْتُ الْيَوْمَ أَمْرًا عَظِيمًا، قَبَّلْتُ وَأَنَا صَائِمٌ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : ((أَرَأَيْتَ لَوْ تَمَضْمَضْتَ بِمَاءٍ وَأَنْتَ صَائِمٌ؟ قُلْتُ: لَا بَأْسَ بِذَلِكَ، فَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم : فَفِيمَ؟))[٣٣].

فجاء المذهب الكلامي هنا على هيئة ((الجمع بين الشيئين في الحكم الواحد لاجتماعهما في الشبه وذلك أن المضمضة بالماء ذريعة لنزوله إلى الحلق ووصوله إلى الجوف فيكون به فساد الصوم كما أن القبلة ذريعة إلى الجماع المفسد للصوم ، فإذا كان أحد الأمرين منهما غير مفطر للصائم فالآخر بمثابته))[٣٤] لاجتماعهما في وجه الشبه . فزال بهذا الحوار استعظام عمر رضي الله عنه لفعله واطمئن بعد أن علم بأن صومه لم يفسد استناداً إلى هذا القياس، ودل على ((أن أصل الفعل لا يمنع منه لا المضمضة ولا الاستنشاق، لكن يمنع من المبالغة التي يغلب على الظن حصول الفطر بسببها، كما أنه أيضاً يمنع من المبالغة في التقبيل، وما هو أعظم من التقبيل مما يغلب على الظن معه أنه يحصل منه شيء يخدش الصيام))[٣٥].

فما أعظم استقبال النبي صلى الله عليه وسلم لهذا الإخبار ، فلم يوبخه ولم يعنفه ، بل بثّ فيه روح البساطة والهدوء واستقبال الفعل بصورته التي وقعت ، فما هو إلا سلوك لا لوم عليه . كل ذلك جرى بما ابتدأه به نبينا الكريم صلى الله عليه وسلم من قياس على هيئة سؤال كإشارة اطمئنان لهذه الشخصية المستفهمة عن حكم ما فعلت ، وقد كان استنفار هذا الصحابي الجليل وسرعته في الاستفهام عن مشروعية فعلته واضح في هذا

الحديث بما رسمه حرف الفاء من سرعة التعاقب (فقبلت – فأتيت – فقلت) فالفاء أفادت اختصار الزمن ، فهو قد طوى الزمن بسرعة ، حيث جاءت الأفعال جميعها معطوفة بحرف الفاء الذي يفيد السرعة في المجازاة بدون مهلة زمنية [٣٦]، لتعطي شعوراً بسرعة الأحداث وتعاقبها.

وفي موضوع عبادي آخر يشوق النبي صلى الله عليه وسلم المخاطبين بطريقة المذهب الكلامي والاستدلال العقلاني بضرب المثل الذي يُقرب الصورة لهم لرفع الهمة والترغيب بالعمل الذي يوصي به ، فيسألهم ((أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ يَغْتَسِلُ مِنْهُ كُلَّ يَوْمٍ خَمْسَ مَرَّاتٍ ، هَلْ يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ ؟ قَالُوا: لَا يَبْقَى مِنْ دَرَنِهِ شَيْءٌ ، قَالَ : فَذَلِكَ مَثَلُ الصَّلَوَاتِ الْخَمْسِ، يَمْحُو اللهُ بِهِنَّ الْخَطَايَا)) [٣٧] .

وهنا جاءت الْهمزَة للاستفهام على سبيل التقرير ، فهو أمر محسوم سلفاً ومتفق عليه عقلاً ومنطقاً، وفائدة التمثيل هنا التقييد وجعل المعقول كالمحسوس فشبه ((على وجه التمثيل حال المسلم المقترف لبعض الذنوب المحافظ على أداء الصلوات الخمس في زوال الأذى عنه وطهارته من أقذار السيئات)) [٣٨].

قال ابن العربي: ((وَجه التَّمْثِيل أَن الْمَرْء كَمَا يتدنس بالأقذار المحسوسة فِي بدنه وثيابه ويطهره المَاء الْكثير، فَكَذَلِك الصَّلَوَات تطهر العَبْد من أقذار الذُّنُوب حَتَّى لَا تبقي لَهُ ذَنبا إِلَّا أسقطته وكفرته)) [٣٩] .

ونلاحظ هنا عكس في اللفظ للمبالغة فعكس ((في التشبيه حيث أن الأصل تشبيه المعقول بالمحسوس)) [٤٠] .

ومن الصور البديعة التي احتواها هذا الحديث النبوي الشريف تخصيص الفعل المضارع ((دون الماضي والأمر، في قوله: (يغتسل – يبقي - لا يبقي – يمحو) للدلالة على تكرار الغسل وتجدده واستمراره، وما أجمل العموم في لفظ (يغسل) غير المقيد، وبلاغته العميقة في تنوع الغسل، ليشمل جميع البدن أو معظمه، أو الاقتصار على أعضاء الوضوء فقط، وللدلالة على طهارة تجدد الأوساخ الحسية في البدن والثوب، والمعنوية من الطهارة النفسية والقلبية، فهو متجدد مع المرات الخمس، وللدلالة على استمرار محو الذنوب في (يمحو الله بهن الخطايا) في العمر كله، لتجدد الغسل والصلاة المفروضة كل يوم)) [٤١]

وقد تزاحمت الصور الجزئية في هذا الحديث النبوي الشريف لتتعانق مع المذهب الكلامي ليتم الإقناع للمخاطبين في كل زمان ومكان ومنها :

المجازُ المرسلُ في (يغتسل فيه)، فليس المرادُ أن يغتسل في امتداد النهر كلِّه، يَسْبَحُ فيه من أوله إلى آخره، بل المراد في جزء منه، لتوحي الكلية في النهر بشمول الجسد وكمال الطهارة .

ومنها: صورة الاستعارة التصريحية في (يمحو الله بهن الخطايا) لأن الخطايا أمر معنوي، والمحو لا يكون إلا للحسي، فجاءت في صورة محسوسة للتأكيد على غفرانها كلها، سواء الصغائر منها أو الكبائر على الأرجح عند العلماء ، وهذا من الترغيب الإلهي للناس كافة .

ومنها: صورة التشبيه التمثيلي إذ شبّه الذي يغتسل بالماء خمس مرات - يعني الوضوء – ألا يبقى في جسده شيء من الشوائب والأوساخ بحال المصلي الذي تُمحى بصلاته ذنوبه كلها [٤٢] .

وأما الصورة الكلية البديعة فقد وردت في أقصوصة طريفة ومثيرة، نسج فيها الخيال أحداثًا حسية ومشاهد حية، لتحريك العاطفة وإثارة العقل وتنشيط الوجدان واشتياق القلب ((فجاءت في صورة حكاية جرت في العادة، وقامت مشاهدها المتنوعة فيما بين منزل مقام على نهر واسع ومتجدد، بجوار منازل أخرى، يغتسل المقيمون فيها كل يوم خمس مرات، في كل مرة يزيل الأوساخ من البدن والثوب، ثم يتبعها بالصلوات الخمس، ويدور الحوار بين شخصيات القصة، الراوي الذي سمع من الرسول صلى الله عليه وسلم والمتحدث والسائل والمجيب، والمستمعون وهم كثيرون، يفكرون في السؤال ويحاولون الإجابة، كل ذلك في أحداث محسوسة، ومشاهد حية ومتحركة في قصة قصيرة بليغة))[٤٣] .

وإنما ضرب المثل بالنهر؛ لأن النهر لجريته لا يقف فيه الماء الأول الذي اغتسل به في المرة الأولى، وإنما يتجدد عند كل مرة من الاغتسال ماء جديد ، فشبه رسول الله صلى الله عليه وسلم ((الصلوات الخمس بالمرات الخمس في الاغتسال، وأن تلك المرة الأولى أزالت ما وجدته من الخطايا بإزالة ذهبت بها الجرية، ثم جاءت الغسلة الثانية فغسلت ما عساه تجدد، ثم ذهبت به الجرية، ثم جاءت الغسلة الثالثة كذلك، فكانت الغسلات ماحية ما يتجدد بين كل غسلتين من الذنوب))[٤٤] .

وفائدة التمثيل التأكيد وجعل المفعول كالمحسوس . قال الطيبيّ: ((في هذا الحديث مبالغة في نفي الذنوب، لأنهم لم يقتصروا في الجواب على لا، بل أعادوا اللفظ تأكيدًا))[٤٥] ، وهذا من دقائق التعبير في الحديث النبوي الشريف .

أما الجانب السلوكي فلم يكن بمعزل عن هذا الاحتجاج النظري لحث المتلقين على ضرورة الأخذ بالتوجيهات النبوية ، ومن ذلك قوله (ﷺ) ((أَلَا إِنَّ اللَّهَ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى قَدْ أَذْهَبَ عَنْكُمْ نَخْوَةَ الْجَاهِلِيَّةِ وَتَكَبُّرَهَا بِآبَائِهَا، كُلُّكُمْ لِآدَمَ، وَآدَمُ مِنْ تُرَابٍ، وَأَكْرَمُكُمْ عِنْدَ اللَّهِ أَتْقَاكُمْ))[٤٦] . وأول ما نلحظه هنا اقتداء التوجيه النبوي بالقرآن الكريم إذ قال الله تعالى ((يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُمْ مِنْ ذَكَرٍ وَأُنْثَى وجعلناكم شعوباً وقبائل لتعارفوا إن أكرمكم عند الله أتقاكم))[٤٧] ولا عجب فهما من مشكاة واحدة .ولإقناعهم بخلق التواضع الذي ينبؤ عن معدن أصيل للنفس البشرية من أي لون كانت وبأي لغة تحدثت جاءت هذه الطريقة في الخطاب ؛ ليستقيم المتلقون لها وفق مرادها الذي يُحقق الاتزان والعيش الكريم ، وكما قيل :

الناس في صورة التّشبيه أكفاءُ أبوهُمُ آدمٌ والأمّ حوّاءُ

فإن يكن لهُم في أصلها شَرَفٌ يفاخرون به فالطّين والماءُ

ما الفضل إلا لأهل العلم إنهمُ على الهُدَى لمن استهدَى أدلاّءُ

ووَزْنُ كل امرئ ما كان يُحسنه والجاهلون لأهل العلم أعداءُ[٤٨]

ولأن جذور الجاهلية ممتدة في النفوس كان الاحتجاج النظري ضرورياً لإقناعهم بهذا الخلق العظيم .

وعن أبي سعيد الخدري قال : ((خَرَجَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ فِي أَضْحَى أَوْ فِطْرٍ إِلَى المُصَلَّى، فَمَرَّ عَلَى النِّسَاءِ، فَقَالَ: يَا مَعْشَرَ النِّسَاءِ تَصَدَّقْنَ فَإِنِّي أُرِيتُكُنَّ أَكْثَرَ أَهْلِ النَّارِ، فَقُلْنَ: وَبِمَ يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: تُكْثِرْنَ اللَّعْنَ، وَتَكْفُرْنَ العَشِيرَ، مَا رَأَيْتُ مِنْ نَاقِصَاتِ عَقْلٍ وَدِينٍ أَذْهَبَ لِلُبِّ الرَّجُلِ الحَازِمِ مِنْ إِحْدَاكُنَّ، قُلْنَ: وَمَا نُقْصَانُ دِينِنَا وَعَقْلِنَا يَا رَسُولَ اللَّهِ؟ قَالَ: أَلَيْسَ شَهَادَةُ المَرْأَةِ مِثْلَ نِصْفِ شَهَادَةِ الرَّجُلِ، قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ عَقْلِهَا، أَلَيْسَ إِذَا حَاضَتْ لَمْ تُصَلِّ وَلَمْ تَصُمْ، قُلْنَ: بَلَى، قَالَ: فَذَلِكِ مِنْ نُقْصَانِ دِينِهَا))[٤٩] .

وأول ما يستوجب الوقوف عليه هنا مسألة النقصان والتي جاء المذهب الكلامي لتوضيحها وإزالة الإشكال حولها ، فهل نقصان العقل والدين سُبة عليهن ، أم هو من طبيعة الخلقة ، وعند التأمل لنهاية الحديث نلحظ أن النقص ((قَدْ يَقَعُ ضَرُورَةً لَا تُدْفَعُ أَلَا تَرَى أَنَّ اللَّهَ جَبَلَهُنَّ عَلَى مَا يَكُونُ نَقْصًا فِيهِنَّ))[٥٠]، ومن روائع التعبير ولطافته بين المتحاورين أن يستشكلن كونهن ناقصات عقل ودين ، ولا يكتمن ما استغربنه من طبيعة المقال ((وَمَا أَلْطَفَ مَا أَجَابَهُنَّ بِهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ مِنْ غَيْرِ تَعْنِيفٍ وَلَا لَوْمٍ بَلْ خَاطَبَهُنَّ عَلَى قَدْرِ عُقُولِهِنَّ))[٥١] ، فشرح لهم صلى الله عليه وسلم شرحا عقلانياً على طريقة المذهب الكلامي تفاصيل إجابته الشافية ليكنّ على بينة من ذلك ، ففي مسألة الشهادة شهادة المرأة نصف شهادة الرجل وهذا من نقصان العقل ((لِأَنَّ الِاسْتِظْهَارَ بِأُخْرَى مُؤْذِنٌ بِقِلَّةِ ضَبْطِهَا وَهُوَ مشعر بِنَقص عقلهَا))[٥٢] .

قال الله تعالى ((واستشهدوا شهيدين من رجالكم فإن لم يكونا رجلين فرجل وامرأتان ممن ترضون من الشهداء أن تضل إحداهما فتذكر إحداهما الأخرى))[٥٣] ، وأما مسألة نقصان الدين فتركها الصلاة والصيام في أوقات معلومة محددة ، وقد نبه النبي صلى الله عليه وسلم على هذه المسائل (تحذيرا مِنَ الِافْتِتَانِ بِهِنَّ)[٥٤].

والخطاب في (أُرِيتُكُنَّ) ليس المقصود به ((سامعات الحديث، حتى يحكم عليهن بدخول النار، فقد يكن كلهن من أهل الجنة، وإنما المقصود خطاب المنادى (معشر النساء) فكأنه قال: فإني رأيت معشر النساء أكثر أهل النار والمرئي في النار من النساء من اتصف بالصفات الذميمة))[٥٥] . وإذا ما انتقلنا إلى حديث آخر نجد قوله (ﷺ): ((لَا عَدْوَى ، فَقَامَ رَجُلٌ مِنَ الْأَعْرَابِ، فَقَالَ : يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ الْإِبِلَ تَكُونُ فِي الرَّمْلِ أَمْثَالَ الظِّبَاءِ ، فَيَأْتِيهَا الْبَعِيرُ الْأَجْرَبُ ، فَتَجْرَبُ جَمِيعًا ؟ قَالَ : فَمَنْ أَعْدَى الْأَوَّلَ؟))[٥٦] .

فعندما أخبرهم النبي (ﷺ)بعدم وجود العدوى ((يريد أن شيئاً لا يعدي شيئاً حتى يكون الضرر من قبله وإنما هو تقدير الله جل وعز وسابق قضائه فيه))[٥٧] هنا استفهم الأعرابي عن تفصيل هذا الموضوع فلم تتضح الصورة عنده ، فأجابه صلى الله عليه وسلم بقوله : (فَمَنْ أَعْدَى الْأَوَّلَ) وفي ذلك تظهر الحجة البالغة .

والجواب النبوي على طريقة المذهب الكلامي في غاية البلاغة وحاصله ((مِنْ أَيْنَ جَاءَ الْجَرَبُ لِلَّذِي أَعْدَى بِزَعْمِهِمْ فَإِنْ أُجِيبَ مِنْ بَعِيرٍ آخَرَ لَزِمَ التَّسَلْسُلُ أَوْ سَبَبٌ آخَرُ فَلْيُفْصِحْ بِهِ فَإِنْ أُجِيبَ بِأَنَّ الَّذِي فَعَلَهُ فِي الْأَوَّلِ هُوَ الَّذِي فَعَلَهُ فِي الثَّانِي ثَبَتَ الْمُدَّعَى وَهُوَ أَنَّ الَّذِي فَعَلَ بِالْجَمِيعِ ذَلِكَ هُوَ الْخَالِقُ الْقَادِرُ عَلَى كُلِّ شَيْءٍ وَهُوَ اللَّهُ سُبْحَانَهُ وَتَعَالَى))[٥٨] .

قَالَ الطِّيبِيُّ : ((وَإِنَّمَا أَتَى بِمَنْ، وَالظَّاهِرُ أَنْ يُقَالَ: فَمَا أَعْدَى الْأَوَّلَ ، لِيُجَابَ بِقَوْلِهِ: اللَّهُ تَعَالَى ،أَيِ :اللَّهُ أَعْدَى لَا غَيْرُهُ، وَذَكَرَ أَعْدَى لِلْمُشَاكَلَةِ وَالِازْدِوَاجِ، كَمَا فِي قَوْلِهِ: (كَمَا تَدِينُ تُدَانُ) يَعْنِي، وَكَانَ الظَّاهِرُ أَنْ يَقُولَ: فَمَنْ أَعْطَى تِلْكَ الْعِلَّةَ؟))[٥٩] .

ونلحظ هنا أن الاستفهام تقريري أريد منه حمل المخاطب على الإقرار بما يعرفه ليزول الإشكال ويتضح المراد عنده[٦٠] .

وعن عَبْدَ اللهِ بْنَ أَبِي أَوْفَى، قَالَ: جَاءَ رَجُلٌ إِلَى النَّبِيِّ (ﷺ)، فَقَالَ: يَا رَسُولَ اللهِ، إِنَّ هَهُنَا غُلَامًا قَدِ احْتُضِرَ يُقَالُ لَهُ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ فَلَا يَسْتَطِيعُ أَنْ يَقُولَهَا، قَالَ: ((أَلَيْسَ قَدْ كَانَ يَقُولُهَا فِي حَيَاتِهِ؟ قَالُوا: بَلَى، قَالَ: فَمَا مَنَعَهُ مِنْهَا عِنْدَ مَوْتِهِ؟ قَالَ: فَنَهَضَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ)وَنَهَضْنَا مَعَهُ حَتَّى أَتَى الْغُلَامَ، فَقَالَ: يَا غُلَامُ قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، قَالَ: لَا أَسْتَطِيعُ أَنْ أَقُولَهَا، قَالَ: وَلِمَ؟ قَالَ: لِعُقُوقِ وَالِدَتِي، قَالَ: أَحَيَّةٌ هِيَ؟ قَالَ: نَعَمْ، قَالَ: أَرْسِلُوا إِلَيْهَا ، فَأَرْسَلُوا إِلَيْهَا فَجَاءَتْ، فَقَالَ لَهَا رَسُولُ اللهِ (ﷺ): ابْنُكِ هُوَ؟ قَالَتْ: نَعَمْ، قَالَ: أَرَأَيْتِ لَوْ أَنَّ نَارًا أُجِّجَتْ فَقِيلَ لَكِ: إِنْ لَمْ تَشْفَعِي لَهُ قَذَفْنَاهُ فِي هَذِهِ النَّارِ، قَالَتْ: إِذًا كُنْتُ أَشْفَعُ لَهُ، قَالَ: فَأَشْهِدِي اللهَ، وَأَشْهِدِينَا مَعَكِ بِأَنَّكِ قَدْ رَضِيتِ ، قَالَتْ: قَدْ رَضِيتُ عَنِ ابْنِي، قَالَ: يَا غُلَامُ، قُلْ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ ، فَقَالَ: لَا إِلَهَ إِلَّا اللهُ، فَقَالَ رَسُولُ اللهِ (ﷺ): الْحَمْدُ لِلَّهِ الَّذِي أَنْقَذَهُ مِنَ النَّارِ))[٦١] .

ونقف هنا أمام قمة الرحمة الإنسانية فنبينا الكريم (ﷺ)يقنع أمه بالعفو عنه مستعملاً الإقناع العقلاني لينقذه من النار ، فقد صوّر لها النار وقد أُججت وابنها على وشك أن يُقذف فيها ، وهنا تأخذها الرحمة فيلين قلبها وتسامحه على ما بدر منه في سالف أيامه ، ونلمح هنا حراكاً مستعجلاً فقد ضاق الوقت بهم ، فيأتي رسول الله صلى الله عليه وسلم بصحبة الصحب الكرام ويبدأ الحوار الذي ينتهي برضا الأم ووداع ابنها للحياة وهي راضية عنه أتم الرضا .

وقد كان للمذهب الكلامي حضور في جانب معاملات الناس فيما بينهم ، فنجد نبينا الكريم (ﷺ) ينهى عن بَيْعِ الثِّمَارِ حَتَّى تُزْهِيَ قِيلَ: يَا رَسُولَ اللَّهِ، وَمَا تُزْهِي؟، قَالَ: حَتَّى تَحْمَرَّ، وَقَالَ رَسُولُ اللَّهِ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ: ((أَرَأَيْتَ إِنْ مَنَعَ اللَّهُ الثَّمَرَةَ، فَبِمَ يَأْخُذُ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ))[٦٢] .

فالمعنى الذهني والخطاب العقلاني الذي أراد النبي الكريم صلى الله عليه وسلم إيصاله للمتلقي هو أنه ((لَا يَنْبَغِي أَنْ يَأْخُذَ أَحَدُكُمْ مَالَ أَخِيهِ بَاطِلًا ، لِأَنَّهُ إِذَا تَلِفَتِ الثَّمَرَةُ لَا يَبْقَى لِلْمُشْتَرِي فِي مُقَابَلَةِ مَا دَفَعَهُ شَيْءٌ، وَفِيهِ إِجْرَاءُ الْحُكْمِ عَلَى الْغَالِبِ، لِأَنَّ تَطَرُّقَ التَّلَفِ إِلَى مَا بَدَا صَلَاحُهُ مُمْكِنٌ، وَعَدَمُ تَطَرُّقِهِ إِلَى مَا لَمْ يَبْدُ صَلَاحُهُ مُمْكِنٌ، فَأُنِيطَ الْحُكْمُ بِالْغَالِبِ فِي الْحَالَيْنِ))[٦٣] .

وبهذه الطريقة اقتنع المتلقون بهذا التوجيه النبوي الكريم ، حيث كانت الموازنة العقلانية واضحة بين الصورتين مما حدا بالمتلقي إلى الاقتناع بذلك دونما أي تردد يذكر ، وبهذا أكون قد ختمت هذا المحور .

المحور الثاني : استعمالات الصحابة الكرام للمذهب الكلامي :

لم يغب المذهب الكلامي عن الصحابة الكرام رضي الله عنهم أجمعين في حواراتهم وفي مختلف مواقفهم التي يمرون بها ، فقد استعانوا به على بيان الحجة للمقابل ، واستعملوه بالتزامن مع استعمال الحديث النبوي الشريف لبيان الرأي الأصوب في المسألة المعينة التي اختلفوا حولها ، ومن ذلك حديث ابْنِ عَبَّاسٍ، أَنَّ عُمَرَ بْنَ الْخَطَّابِ خَرَجَ إِلَى الشَّامِ، حَتَّى إِذَا كَانَ بِسَرْغَ(٦٤) لَقِيَهُ أُمَرَاءُ الْأَجْنَادِ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ وَأَصْحَابُهُ فَأَخْبَرُوهُ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ بِالشَّامِ، فَقَالَ ابْنُ عَبَّاسٍ: فَقَالَ عُمَرُ: ادْعُ الْمُهَاجِرِينَ الْأَوَّلِينَ، فَدَعَاهُمْ فَاسْتَشَارَهُمْ وَأَخْبَرَهُمْ أَنَّ الْوَبَاءَ قَدْ وَقَعَ فِي الشَّامِ، فَاخْتَلَفُوا عَلَيْهِ فَقَالَ بَعْضُهُمْ: قَدْ خَرَجْتَ لِأَمْرٍ فَلَا نَرَى أَنْ تَرْجِعَ عَنْهُ، وَقَالَ بَعْضُهُمْ: مَعَكَ بَقِيَّةُ النَّاسِ وَأَصْحَابُ رَسُولِ اللَّهِ صلى الله عليه وسلم ، وَلَا نَرَى أَنْ تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ. فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: ادْعُوا لِي الْأَنْصَارَ، فَدَعَاهُمْ لَهُ فَاسْتَشَارَهُمْ فَسَلَكُوا سَبِيلَ الْمُهَاجِرِينَ، وَاخْتَلَفُوا كَاخْتِلَافِهِمْ، فَقَالَ: ارْتَفِعُوا عَنِّي، ثُمَّ قَالَ: ادْعُ لِي مَنْ كَانَ هَا هُنَا مِنْ مَشْيَخَةِ قُرَيْشٍ مُهَاجِرَةِ الْفَتْحِ فَدَعَاهُمْ فَلَمْ يَخْتَلِفْ عَلَيْهِمْ مِنْهُمْ رَجُلَانِ، فَقَالُوا: نَرَى أَنْ تَرْجِعَ بِالنَّاسِ وَلَا تُقْدِمَهُمْ عَلَى هَذَا الْوَبَاءِ، فَنَادَى عُمَرُ فِي النَّاسِ: إِنِّي مُصْبِحٌ عَلَى ظَهْرٍ فَأَصْبِحُوا عَلَيْهِ، فَقَالَ أَبُو عُبَيْدَةَ بْنُ الْجَرَّاحِ: أَفِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ؟ فَقَالَ عُمَرُ: لَوْ غَيْرُكَ قَالَهَا يَا أَبَا عُبَيْدَةَ - وَكَانَ عُمَرُ يَكْرَهُ خِلَافَهُ - نَعَمْ، نَفِرُّ مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِهِ، أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ فَهَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عَدْوَتَانِ إِحْدَاهُمَا خَصْبَةٌ وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ؟ قَالَ: فَجَاءَ عَبْدُ الرَّحْمَنِ بْنُ عَوْفٍ وَكَانَ مُتَغَيِّبًا فِي بَعْضِ حَاجَتِهِ، فَقَالَ: إِنَّ عِنْدِي مِنْ هَذَا عِلْمًا، سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ)يَقُولُ: إِذَا سَمِعْتُمْ بِهِ بِأَرْضٍ فَلَا تُقْدِمُوا عَلَيْهِ، وَإِذَا وَقَعَ بِأَرْضٍ وَأَنْتُمْ بِهَا فَلَا تَخْرُجُوا فِرَارًا مِنْهُ))(٦٥) .

وفي خضم حوار يتمسك طرفاه برأيهم وفق ما يرونه مناسباً يتأخر الدليل الذي يحسم هذه القضية ، مما حدا بعمر رضي الله عنه إلى استعمال المذهب الكلامي والاستدلال العقلاني ليقنعهم برأيه الذي يرى فيه السلامة للجميع ، فلا خوف ولا هلع وإنما المقدم هو المصلحة العامة للمسلمين ليس إلا. وأول ما يمكن ملاحظته في هذه القصة المناظرة عند الاختلاف واستعمال القياس والمشابهة بما يشبه المسألة ، فقد أوضح له ذلك بقوله (أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لَكَ إِبِلٌ فَهَبَطَتْ وَادِيًا لَهُ عَدْوَتَانِ إِحْدَاهُمَا خَصْبَةٌ وَالْأُخْرَى جَدْبَةٌ، أَلَيْسَ إِنْ رَعَيْتَ الْخَصْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ، وَإِنْ رَعَيْتَ الْجَدْبَةَ رَعَيْتَهَا بِقَدَرِ اللَّهِ؟) فَنَقْلُكَ إِيَّاهَا مِنَ الْجَدْبَةِ وَرَعْيُهَا فِي الْخِصْبَةِ فِرَارًا مِنْ قَدَرِ اللَّهِ إِلَى قَدَرِ اللَّهِ، فَكَذَلِكَ رُجُوعُنَا(٦٦) ، وقد جاء الحوار هنا موافقاً لما أقره الاستعمال الأمثل للمذهب الكلامي عبر إدخاله لمفردات الطبيعة والحيوان بصورة من الواقع المُشَاهد الذي يفهمه جميع الحضور في المناظرة التي بينت أحقية الرجوع وحماية البقية من الصحب الكرام من هذا الوباء ، وهنا تعانقت الموازنة وتوظيف الطبيعة مع المذهب الكلامي ليظهر الحوار بهذه الصورة الفريدة والتي اقتنع المتحاورون جميعاً بما صارت إليه النتيجة الختامية .

وفي حديث آخر قالت عائشة رضي الله عنها يَا رَسُولَ اللَّهِ ، أَرَأَيْتَ لَوْ نَزَلْتَ وَادِيًا فِيهِ شَجَرٌ كَثِيرٌ قَدْ أُكِلَ مِنْهَا، وَوَجَدْتَ شَجَرَةً لَمْ يُؤْكَلْ مِنْهَا، فِي أَيِّهَا كُنْتَ تَرْتَعُ بَعِيرَكَ؟ قَالَ: ((فِي الَّذِي لَمْ يُرْتَعْ فِيهَا))، تُرِيدُ أن رسول الله (ﷺ) لم يتزوج بكرا غيرها(٦٧) .

وهنا نقف أمام حوار مختلف ، فهو لم يكن بين الصحابة أنفسهم ، وإنما بين أم المؤمنين رضي الله عنها وبين النبي صلى الله عليه وسلم ، وقد استعملت السيدة عائشة رضي الله عنها المذهب الكلامي بطريقة فريدة لتصل إلى النتيجة الموجودة أصلا ، والتي يزيدها إقرار النبي صلى الله عليه وسلم إبرازاً ونصاعة وظهوراً وحفاوة أكثر ، وجاء ذلك عبر التوظيف لمظاهر الرعي والطبيعة التي استعملت في الحديث السابق، ونلحظ هنا ((تشبيهُ البِكْر بالشَّجَرة التي لم يُؤكَل منها، والثَّيِّب بالتي أُكل منها))(٦٨) .

ونلمح في هذا التشبيه قمة الأدب والتلميح العفيف في التعبير عن المعنى المراد بأبهى حُلة ، وقد أجابها النبي صلى الله عليه وسلم بالأسلوب نفسه فقد فهم الإشارة لتكتمل بذلك لوحة رائعة من روائع البيان النبوي، وتم ذلك بفضل تعانق التشبيه مع المذهب الكلامي والذي أضاف بدوره معنى بديعاً للحوار هنا . ولا ننسى الدور الذي أحدثته الكناية البديعة في رسم صورة للتعبير الرمزي عن اختلافها رضي الله عنها عن بقية أزواجه (ﷺ). وعَنِ أَنَسٍ رضي الله عنه قَالَ: كَانَ لِأُمِّ سُلَيْمٍ مِنْ أَبِي طَلْحَةَ ابْنٌ، فَمَرِضَ مَرَضَهُ الَّذِي مَاتَ مِنْهُ، فَلَمَّا مَاتَ غَطَّتْهُ أُمُّهُ بِثَوْبٍ، فَدَخَلَ أَبُو طَلْحَةَ فَقَالَ: كَيْفَ أَمْسَى ابْنِي الْيَوْمَ؟ قَالَتْ: أَمْسَى هَادِئًا، فَتَعَشَّى، ثُمَّ قَالَتْ لَهُ فِي بَعْضِ اللَّيْلِ: أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ رَجُلًا أَعَارَكَ عَارِيَةً ثُمَّ أَخَذَهَا مِنْكَ، إِذًا جَزِعْتَ، قَالَ: لَا، قَالَتْ: فَإِنَّ اللَّهَ أَعَارَكَ عَارِيَةً فَأَخَذَهَا مِنْكَ، قَالَ: فَغَدَا إِلَى النَّبِيِّ (ﷺ)، فَأَخْبَرَهُ بِقَوْلِهَا وَقَدْ كَانَ أَصَابَهَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ، فَقَالَ النَّبِيُّ (ﷺ): ((بَارَكَ اللَّهُ لَكُمَا فِي لَيْلَتِكُمَا)) قَالَ: فَوَلَدَتْ غُلَامًا كَانَ اسْمُهُ عَبْدَ اللَّهِ، فَذُكِرَ أَنَّهُ كَانَ خَيْرَ أَهْلِ زَمَانِهِ(٦٩) . والحديث هنا من نوع آخر فهو ذو شجون لا سيما إذا علمنا قصة الطفل قبل وفاته(٧٠) ، فهذا الطفل كان يلاطفه النبي (ﷺ)عند زيارته ، وفي يوم ما وجده مهموماً لوفاة طائره الصغير ، وعندما علم السبب قال له : يا أبا عُمير ما فعل النُغير ، فكاه ولاطفه وواساه ، وتشاء الأقدار أن يموت هذا الطفل بعد فترة(٧١) ، إنه الفرار من قدر الله إلى قدر الله ، وسبحان الحي الذي لا يموت .

فما أروعها من شخصية مباركة تلك التي تستقبل قدر الله بالرضا والقبول ، ولا يظهر شيء على ملامحها عند الحوار والسؤال . إنها فوق ما يتصوره العقل البشري ، ولكنه الإيمان المطلق المتجدد الذي يفعل الأعاجيب ، فما إن تُسأل عن ابنها المريض حتى تبادر بالإجابة (أمسى هادئاً) ، والمعنى ((أَنَّ النَّفْسَ كَانَتْ قَلِقَةً مُنْزَعِجَةً بِعَارِضِ الْمَرَضِ فَسَكَنَتْ بِالْمَوْتِ وَظَنَّ أَبُو طَلْحَةَ أَنَّ مُرَادَهَا أَنَّهَا سَكَنَتْ بِالنَّوْمِ لِوُجُودِ الْعَافِيَةِ ... وَظَنَّ أَبُو طَلْحَةَ أَنَّهَا صَادِقَةٌ أَيْ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا فَهِمَهُ مِنْ كَلَامِهَا وَإِلَّا فَهِيَ صَادِقَةٌ بِالنِّسْبَةِ إِلَى مَا أَرَادَتْ قَوْلَهُ ... فَلَمَّا عَلِمَ اللَّهُ صِدْقَ نِيَّتِهَا بَلَّغَهَا مُنَاهَا وَأَصْلَحَ لَهَا ذُرِّيَّتَهَا وَفِيهِ إِجَابَةُ دَعْوَةِ النَّبِيِّ صَلَّى اللَّهُ عَلَيْهِ وَسَلَّمَ))(٧٢) .

وما إن يصل السؤال إلى نقطة هادئة حتى تبادره بالسؤال مستعملة المذهب الكلامي بأبهى صوره وأوضحها لتُحرك فيه الاقتناع التام بقدر الله مع عِظم المصاب ، فتستعمل التشبيه ولله المثل الأعلى قائلة (أَرَأَيْتَ لَوْ أَنَّ

رَجُلًا أَعَارَكَ عَارِيَةً ثُمَّ أَخَذَهَا مِنْكَ، إِذًا جَزِعْتَ، قَالَ: لَا) وعندما أجابها بعدم الجزع لمثل ذلك أخبرته بفلذة كبدها ، وهنا انطلق الأب الحنون إلى النبي صلى الله عليه وسلم ليُخبره بما حدث ، فتأتي البشارة والدعاء النبوي لهما ((فحملت بعبد الله فولدته ليلًا وكرهت أن تحنكه حتى يحنكه رسول الله (ﷺ)))[٧٣].

وقد كان للكناية أثر واضح في رسم صورة الحياء والعفة لتلك المرأة ذات الشخصية الصابرة القوية ويتجسد ذلك في (وَقَدْ كَانَ أَصَابَهَا تِلْكَ اللَّيْلَةَ) فكان هذا التعبير رمزياً يُفهم منه المقصود ، ونلحظ فيه أن ((الكناية النبوية الجنسية تحقق كذلك إيحاءات فنية تنسجم مع السياق الذي تتشكل فيه لا نلمحها في التعبير الصريح الفاحش ، وذلك لأن الكناية وسيلة حيوية في التعبير ؛ لكونها من الأساليب الإيحائية ، فهي لا تدل على المعنى في صورة مباشرة ، وإنما يعمل الذهن فيها والخيال في الوقوف على المعنى المقصود))[٧٤]، وقد تعانقت مع ضرب المثل والمذهب الكلامي ليَظهر النص بهذا البهاء والرونق الذي يُعدّ خصيصة بارزةً من خصائص التعبير النبوي .

وعن نَافِعٍ قَالَ: رَآنِي ابْنُ عُمَرَ، وَأَنَا أُصَلِّي فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ، فَقَالَ: أَلَمْ أَكُنْ أُكْسِكَ ثَوْبَيْنِ؟ قَالَ: قُلْتُ: بَلَى قَالَ: أَرَأَيْتَ لَوْ أَرْسَلْتُكَ فِي حَاجَةٍ أَكُنْتَ مُنْطَلِقًا فِي ثَوْبٍ وَاحِدٍ؟ قُلْتُ: لَا قَالَ: فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَزَيَّنَ لَهُ، ثُمَّ قَالَ: سَمِعْتُ رَسُولَ اللَّهِ (ﷺ)يَقُولُ: ((إِذَا لَمْ يَكُنْ لِأَحَدِكُمْ إِلَّا ثَوْبٌ وَاحِدٌ فَلْيَشُدَّ بِهِ حَقْوَهُ[٧٥]، وَلَا يَشْتَمِلْ بِهِ اشْتِمَالَ الْيَهُودِ))[٧٦] .

واشتمال اليهود المنهي عنه هو أن يجلل بدنه الثوب ويسبله من غير أن يشيل طرفه[٧٧] ، ونلاحظ هنا تقارب واضح في الاستعمال التعبيري للمذهب الكلامي بين النبي صلى الله عليه وسلم وصحابته الكرام رضي اله عنهم أجمعين ، ولا عجب في ذلك فقد استلهم الصحابة كل شيء من النبوة وتَخلقوا بها خَلقاً وخُلقاً وتعبيراً ، فهنا يقول ابن عمر رضي الله عنه (فَاللَّهُ أَحَقُّ أَنْ تَزَيَّنَ لَهُ) بعد أن يسأله عن تصرفه وقت ذهابه في حاجة ما ، وقبل ذلك كان النبي صلى الله عليه وسلم قد قال (فدين الله أحق بالقضاء) بعد سؤال أيضاً عن طبيعة الوفاء للدين ، ففي كل ذلك تأتي المقاربات الذهنية أولاً ثم يعقبها التوجيه لتصل الرسالة بوضوح تام وجمال أخّاذ ليكون تطبيقها والسير وفق مضامينها سهل على المتلقين ، وبهذه الأمثلة المختصرة أختم هذا المحور .

المحور الثالث : المذهب الكلامي بين القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف .

كثيرة هي الأمثلة القرآنية التي تضمنت هذا الفن البديعي وسأقتصر على بعضها ؛ لأرصد الآلية المتبعة في مجيء المذهب الكلامي في آي الذكر الحكيم ، ومن ثم نرى أوجه الشبه والاختلاف مع أمثلة هذا الفن في الحديث النبوي الشريف ، ومن ذلك قوله تعالى ((قُلْ لَوْ كُنْتُمْ فِي بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ الَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ الْقَتْلُ إِلَى مَضَاجِعِهِمْ))[٧٨] فلأجل إثبات وترسيخ الإيمان بالقضاء والقدر تضمن هذا الخطاب القرآني الاحتجاج النظري والاستدلال العقلاني لإقناعهم بأن المعارك والحروب لا تُقدم الآجال ، وإنما هو القدر السابق لبني البشر في كل زمان ومكان ((فالحذر لا يدفع القدر والتدبير لا يقاوم التقدير ، فالذين قدّر الله عليهم القتل لا بُدّ وأن يُقتلوا على جميع التقديرات))[٧٩] ، ومثل هذا المعنى ورد كثيراً في الأحاديث النبوية الشريفة

لترسيخ مبدأ الإيمان بالقضاء والقدر كما مر معنا سابقاً في حديث (فمن أعدى الأول؟) و (نفر من قدر الله إلى قدر الله). ومن الأمثلة الأخرى قوله تعالى : ((أفلا يتدبرون القرآن ولو كان من عند غير الله لوجدوا فيه اختلافاً كثيراً))[٨٠]، فخاطبهم الله تعالى خطاباً يُلزمهم الحجة القاطعة بأن يتيقنوا بأن هذا القرآن العظيم منه سبحانه بدليل خلوه من كل نقص واختلاف ((ووجه هَذَا الدَّلِيلِ أَنَّهُ لَيْسَ مِنْ مُتَكَلِّمٍ كَلَامًا طَوِيلًا إِلَّا وُجِدَ فِي كَلَامِهِ اخْتِلَافٌ كَثِيرٌ، إِمَّا فِي الْوَصْفِ وَاللَّفْظِ، وَإِمَّا فِي الْمَعْنَى بِتَنَاقُضِ أَخْبَارِهِ، أَوِ الْوُقُوعِ عَلَى خِلَافِ الْمُخْبَرِ بِهِ، أَوِ اشْتِمَالِهِ عَلَى مَا لَا يَلْتَئِمُ، أَوْ كَوْنِهِ يُمْكِنُ مُعَارَضَتُهُ. وَالْقُرْآنُ الْعَظِيمُ لَيْسَ فِيهِ شَيْءٌ مِنْ ذَلِكَ، لِأَنَّهُ كَلَامُ الْمُحِيطِ بِكُلِّ شَيْءٍ مُنَاسِبٌ بَلَاغَةً مُعْجِزَةً فَائِتَةً لِقُوَى البلغاء، وتظافر صِدْقِ أَخْبَارِهِ، وَصِحَّةِ مَعَانِيهِ، فَلَا يَقْدِرُ عَلَيْهِ إِلَّا الْعَالِمُ بِمَا لَا يَعْلَمُهُ أَحَدٌ سِوَاهُ))[٨١] . ومثل هذا الاستعمال للمذهب الكلامي لم يرد في الحديث النبوي الشريف . أما قوله تعالى : ((واتخذ قوم موسى من بعده من حليهم عجلاً جسداً له خوار ألم يروا أنه لا يُكلمهم ولا يهديهم سبيلاً اتخذوه وكانوا ظالمين))[٨٢] فهو خطاب متفرد في القرآن الكريم دون الحديث النبوي الشريف، فقد أنكر الله عليهم اتخاذهم آلهة سواه ((وَهَذَا اسْتِفْهَامُ إِنْكَارٍ حَيْثُ عَبَدُوا جَمَادًا أَوْ حَيَوَانًا عَاجِزًا عَلَيْهِ آثَارُ الصَّنْعَةِ لَا يُمْكِنُ أَنْ يَتَكَلَّمَ وَلَا يَهْدِي وَقَدْ رَكَزَ فِي الْعُقُولِ أَنَّ مَنْ كَانَ بِهَذِهِ الْمَثَابَةِ اسْتَحَالَ أَنْ يَكُونَ إِلَهًا وَهَذَا نَوْعٌ مِنْ أَنْوَاعِ الْبَلَاغَةِ يُسَمَّى الِاحْتِجَاجَ النَّظَرِيَّ وَبَعْضُهُمْ يُسَمِّيهِ الْمَذْهَبَ الْكَلَامِيَّ))[٨٣] ويروا بمعنى يعلموا وقد سلب الله تعالى عن آلهتهم المزعومة ((هذين الوصفين دون باقي أوصاف الإلهية لأن انتفاء التكليم يستلزم انتفاء العلم ، وانتفاء الهداية إلى سبيل يستلزم انتفاء القدرة ، وانتفاء هذين الوصفين يستلزم انتفاء باقي الأوصاف))[٨٤] ، وبذلك يلزمهم الحجة البالغة بأن لا إله إلا الله .

وفي قوله تعالى : ((أولا يذكر الإنسانُ أنا خلقناه من قَبلُ ولم يكُ شيئاً))[٨٥] يأتي المذهب الكلامي والحوار الإقناعي ليثبت للإنسان القدرة المطلقة لله تعالى على الإعادة ؛ لأنها أهون من النشأة الأولى لهذا الإنسان الضعيف ((وهل تزيد النطفة حيوية أو قدرة أو قيمة على العظم الرميم المفتوت ؟ أو ليس من تلك النطفة كان الإنسان ؟ أو ليست هذه هي النشأة الأولى ؟ أو ليس الذي حول تلك النطفة إنساناً وجعله خصيماً مبيناً بقادر على أن يحول العظم الرميم مخلوقاً جديداً ؟ إن الأمر أيسر وأظهر من أن يدور حوله سؤال ، فما بالك بالجدل الطويل))[٨٦] ، وَهَذِهِ ((الْحُجَّةُ فِي غَايَةِ الِاخْتِصَارِ وَالْإِلْزَامِ لِلْخَصْمِ))[٨٧] ، وقد جاءت آيات قرآنية كثيرة بهذا المعنى وبالطريقة ذاتها من حيث توظيف المذهب الكلامي لإلزام الخصم الحجة .

أما الحديث النبوي الشريف فقد جاء فيه المذهب الكلامي في هذا الجانب الموضوعي تحديداً في بعض الأحاديث النبوية الشريفة التي تثبت القدرة المطلقة لله تعالى على كل شيء كما مرّ معنا في الحديث السابق (الَّذِي أَمْشَاهُمْ عَلَى أَقْدَامِهِمْ قَادِرٌ أَنْ يُمْشِيَهُمْ عَلَى وُجُوهِهِمْ) والذي استغرب منه أحدهم حتى جاءهم القياس العقلاني فاقتنع به . وفي جانب الترهيب للحث على الطاعة جاء قوله تعالى ((قل إني أخاف إن عصيت ربي عذاب يوم عظيم))[٨٨] ، فالمقصود من هذا الخطاب القرآني إثبات المقابل لذلك ((كَأَنَّهُ قَالَ: أَرْجُو إِنْ أَطَعْتُهُ أَنْ يَرْحَمَنِي رَبِّي، لِأَنَّ مَنْ صُرِفَ عَنْهُ الْعَذَابُ ثَبَتَتْ لَهُ الرَّحْمَةُ. فَجَاءَ فِي إِفَادَةِ هَذَا الْمَعْنَى

بِطَرِيقَةِ الْمَذْهَبِ الْكَلَامِيِّ. وَهُوَ ذِكْرُ الدَّلِيلِ لِيُعْلَمَ الْمَدْلُولُ. وَهَذَا ضَرْبٌ مِنَ الْكِنَايَةِ وَأُسْلُوبٌ بَدِيعٌ بِحَيْثُ يَدْخُلُ الْمَحْكُومُ لَهُ فِي الْحُكْمِ بِعُنْوَانِ كَوْنِهِ فَرْدًا مِنْ أَفْرَادِ الْعُمُومِ الَّذِينَ ثَبَتَ لَهُمُ الْحُكْمُ))[٨٩] ، وقد جاء قريباً من هذا المعنى ولكنه في باب الترغيب استعمال المذهب الكلامي للتشويق كما في قوله (ﷺ):(أَرَأَيْتُمْ لَوْ أَنَّ نَهْرًا بِبَابِ أَحَدِكُمْ) .

وفي موضوع آخر يتفرد به القرآن الكريم دون الحديث النبوي الشريف نقف مع قوله تعالى : ((قل إن كان للرحمن ولدٌ فأنا أول العابدين سبحان رب السماوات والأرض رب العرش عما يصفون))[٩٠] ، فنلاحظ في هذا النص القرآني التدرج في إلجام الخصم الحجة ((وَالنُّكْتَةُ فِي الْعُدُولِ عَنِ الْأَدَاةِ الصَّرِيحَةِ فِي الِامْتِنَاعِ هُنَا إِيهَامهم فِي بادئ الْأَمْرِ أَنَّ فَرْضَ الْوَلَدِ لِلَّهِ مَحَلُّ نَظَرٍ، وَلِيَتَأَتَّى أَنْ يَكُونَ نَظْمُ الْكَلَامِ مُوَجَّهًا حَتَّى إِذَا تَأَمَّلُوهُ وَجَدُوهُ يَنْفِي أَنْ يَكُونَ لِلَّهِ وَلَدٌ بِطَرِيقِ الْمَذْهَبِ الْكَلَامِيِّ))[٩١] ، وبذلك تقوم الحجة عليهم ، فلا مناص من الإيمان بالله تعالى أو النكوص بخيبة بعد أن فنيت حججهم بهذا الخطاب القرآني المعجز .

وفي قوله تعالى : ((ذَلِكَ مِنْ أَنْبَاءِ الْغَيْبِ نُوحِيهِ إِلَيْكَ وَمَا كُنْتَ لَدَيْهِمْ إِذْ أَجْمَعُوا أَمْرَهُمْ وَهُمْ يَمْكُرُونَ وَمَا أَكْثَرُ النَّاسِ وَلَوْ حَرَصْتَ بِمُؤْمِنِينَ وَمَا تَسْأَلُهُمْ عَلَيْهِ مِنْ أَجْرٍ إِنْ هُوَ إِلَّا ذِكْرٌ لِلْعَالَمِينَ))[٩٢] نجد إثبات النبوة والوحي على طريقة المذهب الكلامي ، وهو موضوع خلا منه الحديث النبوي الشريف ، فقد تفرد القرآن الكريم في الحديث عنه وإثباته في أكثر من موضع ، والمعنى هنا ((أن هذا النبأ غيب، لم تعرفه إلا بالوحي، لأنك لم تحضر أخوة يوسف عليه السلام حين عزموا على ما هموا به من أن يجعلوه في غيابة الجب وهم يمكرون به، ومن المعلوم الذي لا يخفى على مكذبيك، أنك ما لقيت أحدا سمع ذلك فتعلمته منه. وقال بعض المحققين: إن هذا تهكم بمن كذبه، وذلك من حيث أنه تعالى جعل المشكوك فيه كونه عليه السلام حاضرا بين يدي أولاد يعقوب عليه السلام))[٩٣].

وبهذا يكون القرآن الكريم قد ألجمهم الحجة ، وبذلك أختم هذا المحور الذي رأينا من خلاله تفرد القرآن الكريم ببعض الموضوعات واشتراكه مع الحديث النبوي الشريف في موضوعات أخرى مع اختلاف واضح في أسلوب التعبير عن المعنى المراد ، ففي القرآن الكريم مثلاً لم يأتِ السؤال للسائل لتتأتى من ذلك الإجابة عما سأل كما في الحديث النبوي الشريف ، وإنما يأتي الخطاب مباشرة لإلزامهم الحجة ، وهذا يعود إلى أن القرآن الكريم ينزل وحياً من السماء ، أما الحديث النبوي الشريف فقد قاله صلى الله عليه وسلم مباشرة للمتلقين مما جعل في الموضوع فسحة للحوار المباشر المطول أحياناً، كما في حديث (أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لِرَجُلٍ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ) ، وغيره من الأحاديث التي مرّ ذكرها .

الخاتمة :

في ختام بحثي هذا والذي تم بفضل الله وتوفيقه لا بد لي أن أشير إلى أبرز النتائج التي توصلت إليها ، والتي تمثلت بالنقاط الآتية :

من خلال الأمثلة التطبيقية لهذا الفن البديعي في الحديث النبوي الشريف تبين أنه لا يمكن أن نطلق عليه تسمية "إلجام الخصم الحجة" وإنما "المذهب الكلامي" أو "الاحتجاج النظري" استناداً إلى طريقة تعاطيه في الحديث النبوي الشريف والتي تختلف اختلافاً كلياً في كل شيء مع تعاطيه في القرآن الكريم إذ تصح تسميته فيه بـ"إلجام الخصم الحجة" ، فلم يكن هناك خصم في الحديث النبوي الشريف وإنما مستفهم أو مستغرب من حكم أو قضية ما وغير ذلك على العكس تماماً مما في القرآن الكريم فقد كثر فيه الخصم العنيد .

تنوعت الموضوعات التي جاء فيها المذهب الكلامي في الحديث النبوي الشريف فكانت عقائدية وعبادية وسلوكية ومعاملات .

تعانقت كثير من الفنون البلاغية مع المذهب الكلامي داخل النص الواحد كالإجمال والتفصيل والمقابلة وضرب المثل والحوار والتشبيه والكناية ، مما أضفى على النص جمال وبهاء ورونق بوصفه خصيصة بارزة من خصائص التعبير النبوي .

وفي كل ذلك كان للمذهب الكلامي الأثر الفعّال في إقناع المتلقي في كل زمان ومكان بضرورة الامتثال لما أرشد إليه الهدي النبوي على صاحبه أفضل الصلاة والسلام .

تنوعت طرق مجيء المذهب الكلامي داخل الحديث النبوي الشريف ، فقد جاء للتشويق والإثارة ، وجاء للإجابة عن سؤال ما ، وجاء لتقريب الصورة لذهن المخاطب خاصة في الأمور الغيبية ، وجاء بصيغة سؤال تتضمن إجابته إجابةً للسؤال المطروح .

أفاد الصحابة الكرام من المذهب الكلامي واستعملوه في حواراتهم متمثلين بالهدي النبوي ، فقد تشابهت طريقة استعماله من قبلهم مع الطريقة النبوية في الإفادة منه في خطاب المتلقين . اشترك هذا الفن البديعي من حيث الجانب الموضوعي في القرآن الكريم والحديث النبوي الشريف في بعض الموضوعات ، وانفردا في بعضها ، تبعاً لتنوع المخاطبين وطبيعة الموضوع الذي جرى الحوار حوله ، واختلفت الأساليب التي جاء فيها المذهب الكلامي فيهما فلكل خصائصه التعبيرية، ففي القرآن الكريم مثلاً لم يأتِ السؤال للسائل لتتأتى من ذلك الإجابة عما سأل كما في الحديث النبوي الشريف ، وإنما يأتي الخطاب مباشرة لإلزامهم الحجة ، وهذا يعود إلى أن القرآن الكريم ينزل وحياً من السماء ، أما الحديث النبوي الشريف فقد قاله صلى الله عليه وسلم مباشرة للمتلقين مما جعل في الموضوع فسحة للحوار المباشر المطول أحياناً، كما في حديث (أَرَأَيْتَ لَوْ كَانَ لِرَجُلٍ خَيْلٌ غُرٌّ مُحَجَّلَةٌ) ، وغيره من الأحاديث التي مرّ ذكرها .

لا زالت البلاغة النبوية بحاجة ماسة إلى دراسات تطبيقية أخرى تكشف النقاب عن روائع التعبير النبوي.

الهوامش

(١) المذهب الكلامي : هو أن يأتي البليغ على صحة دعواه، وإبطال دعوى خصمه بحجة قاطعة عقلية تصح نسبتها إلى علم الكلام ، إذ علم الكلام عبارة عن إثبات أصول الدين بالبراهين العقلية القاطعة . خزانة الأدب ١/ ٣٦٤ . ولا يشترط أن يكون الطرف المقابل خصماً ، فقد يكون سائلاً عن أمر ما ، أو مستفهماً عن شيء غامض تم الحديث عنه . وهو أيضاً : إيراد حجة للمطلوب على طريقة أهل الكلام، وذلك أن يكون بعد تسليم المقدمات مقدمة ملتزمة للمطلوب . التعريفات : ١٤٥ . ويسمى أيضاً "الاحتجاج النظري" وسماه بذلك أبو حيان الأندلسي وابن قيم الجوزية وابن النقيب ، أما الزركشي فقد سماه "إلجام الخصم الحجة" بينما علماء البلاغة يسمونه "المذهب الكلامي" . المعجم المفصل في علوم البلاغة : ٣٥ .

(٢) أخرجه الطيالسي (٢٦٨٩) .

(٣) تحفة الأحوذي ٨/ ٤٦٠ .

(٤) سورة الفرقان : ٣٤ .

(٥) سورة الزمر : ٢٤ .

(٦) المفاتيح في شرح المصابيح ٥/ ٤٨٣ .

(٧) أخرجه الطيالسي (٢١٨٤) .

(٨) خزانة الأدب ١/ ٣٦٤ .

(٩) أخرجه مالك في "الموطأ" (٢٤) .

(١٠) الاستذكار ١/ ١٩٤ .

(١١) تطريز رياض الصالحين ١/ ٦٠٣ .

(١٢) شرح رياض الصالحين – حطيبة ١١/ ٩٦ .

(١٣) المصدر نفسه .

(١٤) سورة يس : ٣٠ .

(١٥) في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٦٦ .

(١٦) أخرجه الحميدي في "مسنده" (٩٠٧) .

(١٧) سورة الزمر : ٢٩ .

(١٨) في ظلال القرآن ٥/ ٣٠٤٩ .

(١٩) سورة آل عمران : ١٣٣ .

(٢٠) أخرجه البزار في " البحر الزخار " (٩٣٨٠) .

(٢١) أخرجه أبو داود في "سننه" (٢١٤٠) .

(٢٢) مرقاة المفاتيح ٥/ ٢١٢٩ .

(٢٣) أخرجه البخاري (١٩٥٣) ، ومسلم (١١٤٨) .

(٢٤) تيسير العلام شرح عمدة الأحكام ١/ ٣٣٤ .

(٢٥) الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم ١٣/ ١٠٠ .

(٢٦) أخرجه مسلم (١٠٠٦) .

(٢٧) شرح النووي على مسلم ٧/ ٩٢ .

(٢٨) شرح السيوطي على مسلم ٣/ ٧٨ .
(٢٩) مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح ٤/ ١٣٣٨ .
(٣٠) إكمال المعلم بفوائد مسلم ٣/ ٥٢٧ .
(٣١) العدة في شرح العمدة ٣/ ١٣٧٧ .
(٣٢) شرح سنن أبي داود للعباد ٥٩٤/ ٢١ .
(٣٣) أخرجه أحمد (١٣٨) .
(٣٤) معالم السنن ٢/ ١١٤ .
(٣٥) شرح الموطأ لعبد الكريم الخضير١١/ ٦١ .
(٣٦) البلاغة النبوية بين النظرية والتطبيق – د. غالب محمد الشاويش – مكتبة الرشد– الرياض– ط١ – ٢٠٠٩ : ١٥٣
(٣٧) أخرجه مسلم (٢٨٣) .
(٣٨) إرشاد الساري ١/ ٤٨٣ .
(٣٩) عمدة القاري ٥/ ١٥-١٦ .
(٤٠) مرعاة المفاتيح ٢/ ٢٧٠ .
(٤١) التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية : ٣٤ .
(٤٢) ينظر : المصدر نفسه : ٣٥ .
(٤٣) المصدر نفسه : ٣٥ .
(٤٤) الإفصاح عن معاني الصحاح ٦/ ١٩٩ .
(٤٥) كوثر المعاني الدراري ٧/ ٤٦٧ .
(٤٦) أخرجه الأزرقي في "أخبار مكة" ٢/ ١٢١ .
(٤٧) سورة الحجرات : ١٣ .
(٤٨) أسرار البلاغة ١/ ٢٦٤ ، والأبيات من البحر البسيط .
(٤٩) أخرجه البخاري (٣٠٤) .
(٥٠) التمهيد ٣/ ٣٢٥ .
(٥١) فتح الباري ١/ ٤٠٦ .
(٥٢) المصدر نفسه .
(٥٣) سورة البقرة :٢٨٢ .
(٥٤) المصدر نفسه .
(٥٥) فتح المنعم ١/ ٢٥٦ .
(٥٦) أخرجه الطبراني في "الأوسط" (٤٦١٤) .
(٥٧) معالم السنن ٤/ ٢٣٣ .
(٥٨) فتح الباري ١٠/ ٢٤٢ .
(٥٩) مرقاة المفاتيح ٧/ ٢٨٩٥ .
(٦٠) ينظر : المنهل الحديث ٤/ ١٥١ .

(٦١)أخرجه البيهقي في "شعب الإيمان" (٧٥٠٨) .

(٦٢)أخرجه النسائي (٤٥٢٦) .

(٦٣)شرح الزرقاني على الموطأ ٣/ ٣٩٤ .

(٦٤) بفتح أوله، وسكون ثانيه، ثم غين معجمة- والمهملة لغة فيه: أول الحجاز وآخر الشام بين المغيثة وتبوك، من منازل الحاج الشامي. مراصد الاطلاع ٢/ ٧٠٧ .

(٦٥)أخرجه الشاشي في "مسنده" (٢٣٥) .

(٦٦) ينظر : شرح الزرقاني على الموطأ ٤/ ٣٧١ .

(٦٧)أخرجه ابن حبان (٤٣٣١) .

(٦٨) اللامع الصبيح ١٣/ ١٧٧ .

(٦٩) أخرجه عبد الرزاق في "مصنفه" (٢٠١٤٠) .

(٧٠) ينظر : شرح سنن أبي داود للعباد ٣/ ٥٦٦ .

(٧١) ينظر : شرح سنن ابن ماجه للسيوطي ١/ ٢٦٤ .

(٧٢) فتح الباري ٣/ ١٧١ .

(٧٣)الفتح الرباني ٢٢/ ٤٢٤ .

(٧٤) الكناية في القرآن الكريم – أطروحة دكتوراه – أحمد فتحي رمضان – كلية الآداب – جامعة الموصل – ١٩٩٥م : ٧٤

(٧٥)الأصل في الحقو معقد الإزار ، وجمعه أحْق وأحْقَاء، ثم سُمي به الإزار للمجاورة. النهاية في غريب الحديث(حقا) ١/ ٤١٧.

(٧٦)أخرجه ابن خزيمة (٧٦٦) .

(٧٧) معالم السنن ١/ ١٧٨ .

(٧٨)سورة آل عمران : ١٥٤ .

(٧٩) تفسير الرازي ٩/ ٣٩٧ .

(٨٠)سورة النساء : ٨٢ .

(٨١)البحر المحيط ٣/ ٧٢٥ .

(٨٢) سورة الأعراف : ١٤٨ .

(٨٣)البحر المحيط ٥/ ١٧٧ .

(٨٤)المصدر نفسه .

(٨٥)سورة مريم : ٦٧ .

(٨٦)في ظلال القرآن ٥/ ٢٩٧٧ .

(٨٧) البحر المحيط ٧/ ٢٨٦ .

(٨٨)سورة الأنعام : ١٥ .

(٨٩)التحرير والتنوير ٧/ ١٦٢ .

(٩٠)سورة الزخرف :٨١-٨٢ .

(٩١)التحرير والتنوير ٢٥/ ٢٦٥ .

(٩٢) سورة يوسف :١٠٢-١٠٤ .

(٩٣) الجدول في إعراب القرآن ١٣/ ٧٤ .

المصادر

المصادر بعد القرآن الكريم هي :

-الإحسان في تقريب صحيح ابن حبان - محمد بن حبان بن أحمد بن حبان بن معاذ بن مَعْبَدَ، التميمي، أبو حاتم، الدارمي، البُستي (٣٥٤هـ) - ترتيب: الأمير علاء الدين علي بن بلبان الفارسي - (٧٣٩هـ) - حققه وخرج أحاديثه وعلق عليه: شعيب الأرنؤوط - مؤسسة الرسالة، بيروت – ط١ - ١٩٨٨.

-أخبار مكة وما جاء فيها من الآثار - أبو الوليد محمد بن عبد الله بن أحمد بن محمد بن الوليد بن عقبة بن الأزرق الغساني المكي المعروف بالأزرقي - (٢٥٠هـ) - المحقق: رشدي الصالح ملحس - دار الأندلس للنشر – بيروت .

-إرشاد الساري لشرح صحيح البخاري - أحمد بن محمد بن أبي بكر بن عبد الملك القسطلاني القتيبي المصري، أبو العباس، شهاب الدين - (٩٢٣هـ) - المطبعة الكبرى الأميرية - مصر – ط٧ - ١٣٢٣ هـ .

-الاستذكار- أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر بن عاصم النمري القرطبي - (٤٦٣هـ) - تحقيق: سالم محمد عطا، محمد علي معوض - دار الكتب العلمية – بيروت – ط١ – ٢٠٠٠ .

-أسرار البلاغة - أبو بكر عبد القاهر بن عبد الرحمن بن محمد الفارسي الأصل، الجرجاني الدار - (٤٧١هـ) - قرأه وعلق عليه: محمود محمد شاكر - مطبعة المدني بالقاهرة - دار المدني بجدة .

-الإفصاح عن معاني الصحاح - يحيى بن هُبَيْرَة بن محمد بن هبيرة الذهلي الشيبانيّ، أبو المظفر، عون الدين - (٥٦٠هـ) - المحقق: فؤاد عبد المنعم أحمد - دار الوطن - ١٤١٧هـ .

-البحر المحيط في التفسير - أبو حيان محمد بن يوسف بن علي بن يوسف بن حيان أثير الدين الأندلسي - (٧٤٥هـ) - المحقق: صدقي محمد جميل - دار الفكر – بيروت - ١٤٢٠ هـ .

-التحرير والتنوير (تحرير المعنى السديد وتنوير العقل الجديد من تفسير الكتاب المجيد) - محمد الطاهر بن محمد بن محمد الطاهر بن عاشور التونسي - (١٣٩٣هـ) - الدار التونسية للنشر – تونس - ١٩٨٤ هـ .

-تحفة الأحوذي بشرح جامع الترمذي - أبو العلا محمد عبد الرحمن بن عبد الرحيم المباركفوري - (١٣٥٣هـ) - دار الكتب العلمية – بيروت .

-التعريفات – علي بن محمد الشريف الجرجاني – (٨٢٦هـ) – دار الفكر – بيروت – ط١ – ٢٠٠٥م .

-التفسير الكبير (مفاتيح الغيب) - أبو عبد الله محمد بن عمر بن الحسن بن الحسين التيمي الرازي الملقب بفخر الدين الرازي خطيب الري - (٦٠٦هـ) - دار إحياء التراث العربي – بيروت – ط٣ - ١٤٢٠ هـ .

-التمهيد لما في الموطأ من المعاني والأسانيد - أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد بن عبد البر النمري القرطبي - (٤٦٣هـ) - تحقيق: مصطفى بن أحمد العلوي ،محمد عبد الكبير البكري - وزارة عموم الأوقاف والشؤون الإسلامية – المغرب- ١٣٨٧هـ

-الجدول في إعراب القرآن الكريم - محمود بن عبد الرحيم صافي - (١٣٧٦هـ) - دار الرشيد، دمشق - مؤسسة الإيمان، بيروت – ط٤ - ١٤١٨ هـ .

-خزانة الأدب وغاية الأرب - ابن حجة الحموي، تقي الدين أبو بكر بن علي بن عبد الله الحموي الأزراري - (٨٣٧هـ) - المحقق: عصام شقيو - دار ومكتبة الهلال-بيروت، دار البحار-بيروت - ٢٠٠٤م .

-التصوير النبوي للقيم الخلقية والتشريعية في الحديث الشريف - علي صبح - المكتبة الأزهرية للتراث – ط١ - ٢٠٠٢م .

-تطريز رياض الصالحين - فيصل بن عبد العزيز بن فيصل ابن حمد المبارك الحريملي النجدي - (١٣٧٦هـ) - المحقق: د. عبد العزيز بن عبد الله بن إبراهيم الزير آل حمد - دار العاصمة للنشر والتوزيع، الرياض – ط١- ٢٠٠٢ م .
-تيسير العلام شرح عمدة الأحكام - أبو عبد الرحمن عبد الله بن عبد الرحمن بن صالح بن حمد بن محمد بن حمد البسام - (١٤٢٣هـ) - حققه وعلق عليه وخرج أحاديثه وصنع فهارسه: محمد صبحي بن حسن حلاق - مكتبة الصحابة، الأمارات - مكتبة التابعين، القاهرة – ط١- ٢٠٠٦ م .
-الديباج على صحيح مسلم بن الحجاج - عبد الرحمن بن أبي بكر، جلال الدين السيوطي (٩١١هـ) - حقق أصله، وعلق عليه: أبو اسحق الحويني الأثري - دار ابن عفان للنشر والتوزيع - المملكة العربية السعودية – الخبر- ط١ - ١٩٩٦ م .
-سنن أبي داود - أبو داود سليمان بن الأشعث بن إسحاق بن بشير بن شداد بن عمرو الأزدي السِّجِسْتاني - (٢٧٥هـ) المحقق: محمد محيي الدين عبد الحميد - المكتبة العصرية، صيدا – بيروت .
-شرح رياض الصالحين - محمد بن صالح بن محمد العثيمين - (١٤٢١هـ) - دار الوطن للنشر، الرياض - ١٤٢٦ هـ .
-شرح الزرقاني على موطأ الإمام مالك - محمد بن عبد الباقي بن يوسف الزرقاني المصري الأزهري - تحقيق: طه عبد الرؤوف سعد - مكتبة الثقافة الدينية – القاهرة – ط١- ٢٠٠٣م .
-شرح سنن ابن ماجه(مجموع من ٣ شروح) ١- (مصباح الزجاجة) للسيوطي - (ت ٩١١ هـ) ٢- (إنجاح الحاجة) لمحمد عبد الغني المجددي الحنفي - (ت ١٢٩٦ هـ) ٣- (ما يليق من حل اللغات وشرح المشكلات) لفخر الحسن بن عبد الرحمن الحنفي الكنكوهي – (ت١٣١٥ هـ) - قديمي كتب خانة – كراتشي .
-شرح سنن أبي داود - عبد المحسن بن حمد بن عبد المحسن بن عبد الله بن حمد العباد البدر - مصدر الكتاب: دروس صوتية قام بتفريغها موقع الشبكة الإسلامية .
-شَرْحُ صَحِيح مُسْلِمٍ للقاضي عِيَاض المُسَمَّى إِكْمَالُ المُعْلِمِ بِفَوَائِدِ مُسْلِم - عياض بن موسى بن عياض بن عمرون اليحصبي السبتي، أبو الفضل - (٥٤٤هـ) - المحقق: الدكتور يحيَى إِسْمَاعِيل - دار الوفاء للطباعة والنشر والتوزيع، مصر – ط١- ١٩٩٨ م
-شرح الموطأ - مؤلف الأصل: مالك بن أنس الأصبحي المدني - (١٧٩هـ) - الشارح: عبد الكريم بن عبد الله بن عبد الرحمن بن حمد الخضير - دروس مفرغة من موقع الشيخ الخضير على الشبكة الإسلامية .
-شعب الإيمان - أحمد بن الحسين بن علي بن موسى الخُسْرَوْجِردي الخراساني، أبو بكر البيهقي - (٤٥٨هـ) - حققه وراجع نصوصه وخرج أحاديثه: الدكتور عبد العلي عبد الحميد حامد - أشرف على تحقيقه وتخريج أحاديثه: مختار أحمد الندوي، صاحب الدار السلفية ببومباي – الهند - مكتبة الرشد للنشر بالرياض بالتعاون مع الدار السلفية ببومباي بالهند– ط١- ٢٠٠٣
-صحيح البخاري (الجامع المسند الصحيح المختصر من أمور رسول الله صلى الله عليه وسلم وسننه وأيامه) – (٢٥٦هـ) - محمد بن إسماعيل أبو عبدالله البخاري الجعفي - المحقق: محمد زهير بن ناصر الناصر - دار طوق النجاة (مصورة عن السلطانية بإضافة ترقيم محمد فؤاد عبد الباقي) – ط١ -١٤٢٢هـ .
-صحيحُ ابن خُزَيمة - أبو بكر محمد بن إسحاق بن خزيمة بن المغيرة بن صالح بن بكر السلمي النيسابوري - (٣١١هـ) - حَقَقهُ وعَلّق عَلَيه وَخَرّجَ أحَاديثه وَقدَّم له: الدكتور محمد مصطفى الأعظمي - المكتب الإسلامي – ط٣ - ٢٠٠٣ م .
-صحيح مسلم (المسند الصحيح المختصر بنقل العدل عن العدل إلى رسول الله صلى الله عليه وسلم) - مسلم بن الحجاج أبو الحسن القشيري النيسابوري - (٢٦١هـ) - المحقق: محمد فؤاد عبد الباقي - دار إحياء التراث العربي – بيروت .

-العدة في شرح العمدة في أحاديث الأحكام - علي بن إبراهيم بن داود بن سلمان بن سليمان، أبو الحسن، علاء الدين ابن العطار - (٧٢٤ هـ) - وقف على طبعه والعناية به: نظام محمد صالح يعقوبي - دار البشائر الإسلامية للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت – لبنان – ط١ - ٢٠٠٦

-عمدة القاري شرح صحيح البخاري - أبو محمد محمود بن أحمد بن موسى بن أحمد بن حسين الغيتابي الحنفي بدر الدين العيني - (٨٥٥هـ) - دار إحياء التراث العربي – بيروت .

-فتح الباري شرح صحيح البخاري - أحمد بن علي بن حجر أبو الفضل العسقلاني الشافعي - رقم كتبه وأبوابه وأحاديثه: محمد فؤاد عبد الباقي - قام بإخراجه وصححه وأشرف على طبعه: محب الدين الخطيب - دار المعرفة – بيروت- ١٣٧٩هـ .

-الفتح الرباني لترتيب مسند الإمام أحمد بن حنبل الشيباني ومعه بلوغ الأماني من أسرار الفتح الرباني - أحمد بن عبد الرحمن بن محمد البنا الساعاتي - (١٣٧٨ هـ) - دار إحياء التراث العربي – ط٢ .

-فتح المنعم شرح صحيح مسلم - الأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين - دار الشروق – ط١ - ٢٠٠٢ م .

-في ظلال القرآن – سيد قطب – دار الشروق – ط ٣٤ – ٢٠٠٤م .

-كوثَر المَعَاني الدَّرَارِي في كَشْفِ خَبَايا صَحِيحْ البُخَاري - محَمَّد الخَضِر بن سيد عبد الله بن أحمد الجكني الشنقيطي - (١٣٥٤هـ) - مؤسسة الرسالة، بيروت – ط١- ١٩٩٥ م .

-الكوكب الوهاج شرح صحيح مسلم (المسمَّى: الكوكب الوهَّاج والرَّوض البَهَّاج في شرح صحيح مسلم بن الحجاج) - جمع وتأليف: محمد الأمين بن عبد الله الأُرَمي العَلَوي الهَرَري الشافعي، نزيل مكة المكرمة والمجاور بها - مراجعة: لجنة من العلماء برئاسة البرفسور هاشم محمد علي المستشار برابطة العالم الإسلامي - مكة المكرمة - دار المنهاج - دار طوق النجاة – ط١ - ٢٠٠٩

-اللامع الصبيح بشرح الجامع الصحيح - شمس الدين البِرْماوي، أبو عبد الله محمد بن عبد الدائم بن موسى النعيمي العسقلاني المصري الشافعي - (٨٣١هـ) - تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف نور الدين طالب - دار النوادر، سوريا – ط١- ٢٠١٢ م .

-المجتبى من السنن (السنن الصغرى للنسائي) - المؤلف: أبو عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي الخراساني، النسائي - (٣٠٣هـ) - تحقيق: عبد الفتاح أبو غدة - مكتب المطبوعات الإسلامية – حلب – ط٢ – ١٤٠٦.

-مراصد الاطلاع على أسماء الأمكنة والبقاع - عبد المؤمن بن عبد الحق، ابن شمائل القطيعي البغدادي،الحنبلي،صفيّ الدين - (٧٣٩هـ) - دار الجيل - بيروت – ط -١٤١٢هـ .

-مرعاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح - أبو الحسن عبيد الله بن محمد عبد السلام بن خان محمد بن أمان الله بن حسام الدين الرحماني المباركفوري - (١٤١٤هـ)البحوث العلمية والدعوة والإفتاء - الجامعة السلفية - بنارس الهند–ط٣ – ١٩٨٤.

مرقاة المفاتيح شرح مشكاة المصابيح - علي بن (سلطان) محمد، أبو الحسن نور الدين الملا الهروي القاري - (١٠١٤هـ) - دار الفكر، بيروت – ط١- ٢٠٠٢م .

-مسند الإمام أحمد بن حنبل - أبو عبد الله أحمد بن محمد بن حنبل بن هلال بن أسد الشيباني (المتوفى: ٢٤١هـ) - المحقق: أحمد محمد شاكر - دار الحديث – القاهرة - ط١ - ١٩٩٥ م .

-مسند أبي داود الطيالسي - أبو داود سليمان بن داود بن الجارود الطيالسي البصرى (٢٠٤هـ) - المحقق: الدكتور محمد بن عبد المحسن التركي - دار هجر – مصر – ط١- ١٩٩٩ م .

-مسند البزار المنشور باسم البحر الزخار - أبو بكر أحمد بن عمرو بن عبد الخالق بن خلاد بن عبيد الله العتكي المعروف بالبزار - (٢٩٢هـ) - المحقق: محفوظ الرحمن زين الله، (حقق الأجزاء من ١ إلى ٩) وعادل بن سعد (حقق الأجزاء من ١٠ إلى ١٧)

وصبري عبد الخالق الشافعي (حقق الجزء ١٨) - مكتبة العلوم والحكم - المدينة المنورة – ط١ - (بدأت ١٩٨٨م، وانتهت ٢٠٠٩م) .

-مسند الحميدي - أبو بكر عبد الله بن الزبير بن عيسى بن عبيد الله القرشي الأسدي الحميدي المكي - (٢١٩هـ) - حقق نصوصه وخرج أحاديثه: حسن سليم أسد الدَّارَانيّ - دار السقا، دمشق – سوريا – ط١ - ١٩٩٦ م .

-المصنف - أبو بكر عبد الرزاق بن همام بن نافع الحميري اليماني الصنعاني - (المتوفى: ٢١١هـ) - المحقق: حبيب الرحمن الأعظمي - المجلس العلمي- الهند - المكتب الإسلامي – بيروت – ط٢ – ١٤٠٣ .

-معالم السنن، وهو شرح سنن أبي داود - أبو سليمان حمد بن محمد بن إبراهيم بن الخطاب البستي المعروف بالخطابي - (٣٨٨هـ) - المطبعة العلمية–حلب – ط١-١٩٣٢م .

-المعجم الأوسط - سليمان بن أحمد بن أيوب بن مطير اللخمي الشامي، أبو القاسم الطبراني - (٣٦٠هـ) - المحقق: طارق بن عوض الله بن محمد ، عبد المحسن بن إبراهيم الحسيني - دار الحرمين – القاهرة .

-المعجم المفصل في علوم البلاغة – د. أنعام نوال عكاوي – دار الكتب العلمية – بيروت – ط٣ – ٢٠٠٦م.

-المفاتيح في شرح المصابيح - الحسين بن محمود بن الحسن، مظهر الدين الزَّيْدَانيُّ الكوفي الضَّريرُ الشِّيرازيُّ الحَنَفيُّ المشهورُ بالمُظْهِري - (٧٢٧هـ) - تحقيق ودراسة: لجنة مختصة من المحققين بإشراف: نور الدين طالب - دار النوادر، وهو من إصدارات إدارة الثقافة الإسلامية - وزارة الأوقاف الكويتية – ط١- ٢٠١٢ م .

-المنهاج شرح صحيح مسلم بن الحجاج - أبو زكريا محيي الدين يحيى بن شرف النووي - (٦٧٦هـ) - دار إحياء التراث العربي – بيروت – ١٣٩٢ .

-المنهل الحديث في شرح الحديث - الأستاذ الدكتور موسى شاهين لاشين - دار المدار الإسلامي – ط١- ٢٠٠٢ م .

الموطأ - مالك بن أنس بن مالك بن عامر الأصبحي المدني - (١٧٩هـ) - المحقق: محمد مصطفى الأعظمي - مؤسسة زايد بن سلطان آل نهيان للأعمال الخيرية والإنسانية - أبو ظبي – الإمارات – ط١ - ٢٠٠٤ م .

-النهاية في غريب الحديث والأثر - مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد بن محمد بن محمد بن عبد الكريم الشيباني الجزري ابن الأثير - (٦٠٦هـ) - تحقيق: طاهر أحمد الزاوى - محمود محمد الطناحي - المكتبة العلمية – بيروت - ١٩٧٩م .